
دعونا.. نمشي
احمد سباعي

احمد سباعي

دَعُونَا.. نَمْشِ

شركة مكة للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

من مطبوعات نادي الطائف الأدبي
تلفون ٢٣٧٧٦

« محمد رسول الله والذين معه أشداء ... »

صدق الله العظيم

مضت قوافل الأمم تمشى نحو أهدافها فى الحياة ، فما يمنعنا أن نساير القوافل ؟ وما يمنعنا أن نمضى وقد أشرق الصباح .

إننا نعانى أمراضا مزمنة تأصلت أدواؤها فى أعماقنا من ألف سنة فليس من اليسير السهل أن نتخلص من كل أدوائنا طفرة واحدة، ولكنه ليس من العسير كذلك أن نلتمس العلاج الذرى فى عهد تيسرت فيه جميع الإمكانيات ، وأصبح من المستحيل فيه أن نتعلل بذكر المستحيل ! !

وأدواؤنا على كثرتها وتنوع أصولها يمكن تصنيفها فى فصول محدودة إذا أردنا التحديد والاستيعاب ، ويمكننا مباشرة علاجها على ضوء هذا التصنيف ، فصلا بعد فصل . إذا صدقنا النية وأخلصنا العزم .

لنبدأ ببيوتنا فبين جدراننا تدرج فلذات أكبادنا فى مدارج لا تهيئهم للآمال التى نعقدها على رؤوسهم .

— يا حبوبتى ! يا بنتى ! ! تعالى هنا يا قمر ١٤ يا بنتى ! ؟

أتدرون ما ابنتها هذه ؟ ؟

لعلكم تحسبونها فتاة ، رقت أعطافها ، ودقت أطرافها ، ودار القمر فى وجهها الفاتن !

لو كان الأمر كذلك لهان الخطب . . ولكن حبوبتها هذه هى ولدها . . ولدهاالذكر بكل ما فى الذكورة من جفاف ! !

إنها تريد أن تدلله ، فلا يكفى أن تسميه حبيبها ، بل تأبى إلا أن تؤنثه: حبوبتى ! ! ثم لا يرضيها إلا أن تردف : يا بنيتى . . كأنها تخشى ألا تتأكد معانى الأنوثة بغير هذا الترادف .

هذه خسارة لا تعوضها الأمة فى فتاها الحبوب . . أو الحبوبة إذا تحرينا تصحيح العبارة الواردة .

داست أمه من حيث لا تشعر على رجولته المبكرة ، وأوحت إليه بجميع المعانى التى تتنافى مع النضج فإذا استوى مائعا ، سائل الأعطاف ، ضعيفا عن مواجهة الحياة . . فلا تثريب عليه لأنه (حبيب أمه . . أو حبوبتها المدلع) .

وليس فى الأمم الناهضة أم تدلل ابنها بمثل هذه المعانى المائعة . . لأنهم يتحاشون الإساءة إلى رجولته ، ويأبون إلا أن يحاولوا بناء أطفالهم بأساليب فيها من مظاهر القوة والبأس أكثر مما فيها من معان أخرى . . « بكره تسير عسكرى . . ورينى كيف تحط البندقية . . ارفع صدرك يا شاطر . . إيوه كمان اضرب برجلك ، وامش زى ما يمشوا الظباط . . بكره اشترى لك بدلة طيار ، واعلق لك النياشين ! ! »

مثل هذه المعانى توحى إليه الكثير من حقائق الرجولة وتبث

فى روحه ألوانا من البأس والقوة ، وتساعد على تنشئته محكم البنيان متين القواعد ، وتعده إعداداً ممتازاً لمواجهة الحياة .

وإذا عدنا مرة أخرى إلى طفلنا الحبوب !! (حبيب أمه) رأيناها لا تكتفى بإعداده المائع الذى أسلفناه ، حتى تحوطه بالكثير من دلالها الفاشل : « ممد رأسك يا واد من البرد !! زرر صدرك يا حبيبى لا يصفقك الهوا !! لا تمشى فى الظلام يا واد .. خذ الفانوس فى يدك !! بطل الكورة لاتعور رجلك !! غط راسك من الشمس لاتصرعك !! » مع آلاف من أمثال هذه النصائح التى لا يوفيها حصر ، ولا يحصرها عد . تنثال فى معانيها إلى واعيته الخفية ، فتترك أثرها الذى لايمحى مع الأيام .. فينشأ ضعيفا أمام البرد ، هيابا من الشمس ، يخاف الظلام ويتخيل وراءه الأهوال ، ولا يجرؤ على الحركة النشيطة التى تجدد الدم وتدفعه قويا فى شرايينه .

إذا تعود الطفل هذا نشأ عليلا تذوى نضارته الشمس، ويسىء مر الهواء إلى صحته . وشب خاملا لا تستخفه فكرة ، ولا تغريه حركة ، ودرج على الأوهام التى تتسع آفاقها للعفاريت والأشباح ، وتضيق عن تصوير الأشياء بحقائقها المجردة .

فإذا رأيتنى اليوم رتيبا أميل إلى الدعة ، وأخلد إلى السكون فى حدود وظيفتى ، أو على مقعد دكانى الوثير ، أو فى ظل دهليز قصرى ؛ لا يستخفنى تجديد ، ولا أجرؤ على الحركة فيما يخرج عن نطاقى ، ولا يتسع ذهنى لغير ما ألفت فى أفقى ..

إذا رأيتنى على مثل هذه الوتيرة ، ورأيت غيرى من الناهضين فى الحياة يتكلف الصعاب فى سن ضاحك ، ويجوب الآفاق إلى ما وراء المجاهل دون أن يهاب الحر أو يبالى بالقر . . ورأيته يقحم حياته فى أشد الزوايا ظلاما ، ويمتحن كفاءته فى أكثر الأمور غموضا ، لا يتعلل بفانوس أو شمعة ، ولا يخشى على رجله أن ترتطم . .

إذا رأيتنى كما أسلفت ، ففتش عما تحت أثوابى . . . إنك ستجد أمى ، وستسمع صوتها يهيب بى : « وه ياولدى ، وه يا حبيبى . . صمد رأسك من البرد .. زرر صدرك من الهوا . . لاتمش فى الظلام قبل ما تاخذ الفانوس .. بطل الكورة لا تعور رجلك » .

وإذا رأيت صاحبى الناهض فيما رأيت ، فتطلع خلفه لترى أمه ، وتسمع صوتها يدوى : « ارفع صدرك يا شاطر . . أيوه كمان اضرب رجلك » . . ألا فليهنأ بصدره المرفوع ، ورجله الضاربة . . وألف رحمة لرأسى المصمد وصدرى المزرر ! !

ولم تقتصر أمى على صيانتى من الحر والبرد ، وحيازتى بعيداً عن مناطق الظلام المجهولة ، بل تفضلت المسكينه فغذت خيالى بمثات القصص التى تمثل البعبع ، وهول الليل ، والدجيرة ، فى أساليب أخاذة ، وصور مثيرة تركت أثرها فى نفسى .

فإذا رأيتنى اليوم أتخيل البعبع وراء كل خطوة لم أتعودها ، وأخشى أن يفاجئنى الهول مختبئا خلف كل فكرة أرتادها فى شؤون حياتى ،

ورأيتنى أتصور الدجيرة آلاف الصور كلما غشيتنى غاشـية من صعاب الأمور ومدلهماتها . .

وبالجملة . . إذا رأيتنى اليوم أتردد فى المواطن التى يعوزها الإقدام ، وينتابنى الوجل فى كل خطوة أخطوها إلى ما لا أعرف . .

وإذا رأيتنى لا أطمئن إلا إلى ما اطمأنت إليـه أمى قبلى . .

فثق أننى لا أستحق لومك . . لأن حياتى لاتزيد فى نظر الفلسفة الصحيحة عن كونها امتدادا طبيعيا لحياة أمى ! !

فهل يرضينا اليوم ونحن على أبواب نهضة جديدة أن ننشئ أبناءنا مثل هذه النشأة العقيمة ؟

إننا إذاً لغافلون .

نريد يا سـيداتى الأمهات أن ننشئ أولادنا أقوياء أمام الشمس ، أشداء فى مواجهة العواصف ، لا يثنيهم ضعف عن أشد الحركات عنفا ، ولا يخيفهم وهم فى أحلك المناطق ظلاما ، وأبعد الأمور غموضا .

نريدهم ليكونوا رجالا بكل ما فى معنى الرجولة من نضج واستواء . لتقوى سواعدهم على بناء المجد الذى نتمناه ! !

فانهضوا للفكرة . . ودعونا نمشى ! !

يزرعوا التفاح في طشت الغسيل

لدينا الفتى العنيد ، والفتى المغرور ، والفتى المشاكس . . . وما أشقى بلادنا بهذه الألوان الثلاثة فى أمتنا :

« الواد دحمانى قام من النوم الساعة ٦ نص الليل مشتهى التفاح » .

أين هذا التفاح فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ . شىء لا يفهمه الولد ، أو لا يريد أن يفهمه ، لأن وسيلته فى إحضار التفاح ، أو ما هو أهم من التفاح ، لا تكلفه إلا أن يبكى ! ! ويبكى بإصرار حتى يقلق البيت ومن فى البيت ! !

— « يا ولد دحين فين نلتق التفاح ! ! طيب والله العظيم اشترى لك التفاح من ساعة نصبح بس اسكت ! ! » .

ولكن الولد لا يريد أن يسكت . . لأنه لابد من التفاح ولو زرعوه الساعة فى طشت الغسيل ! !

هذا (دحمانى) . أما (حمتو) فأمره ألطف . .

إنه استيقظ يبكى .

— أبويه . . شيلنى على كتفك .

— يا ولدى ارقد . . أنا تعبان .

— لا . . شيلنى .

« ولا . . شيلنى . . » كلمة لا يعنى الصبي منها إلا أن أباه يجب أن (يشيله)

على كتفه ، ويقف به الساعة أو الساعتين ، حتى يسبقه النعاس ، فيوسده أبوه الأرض فى هدوء الخائف ، الذى يخشى أن يعود إلى اليقظة ، فيستأنف الوقوف (والشيل) . ! !

أيستطيع أبو (حمتو) أن يعصى ولده فيما طلب ؟ أو يستطيع أبو (دحمانى) أن يهاود فى إحضار التفاح ؟

أبدا . . إنهما لا يستطيعان ذلك لأن (المحافيض) (الله يخليهم) أولاد معاندون ! !

من أين جاء هذا العناد ؟ ؟

أولدوا به يوم ولدوا ؟

— كلا ! وإنما هى تصرفات البيت هيأتهم لهذا العناد وعلمتهم إياه .

إن تساهل الوالدين فيما يجب بالنسبة لابنهما . . كالشدة العاتية فى معاملاته . . كلاهما مدعاة لسوء التربية وفسادها .

هناك حد وسط يجب أن يقف الوالدان على كثب منه ليحزما أمور الصبى ، فلا يحرمانه فى غلظة وقسوة ، ولا يجاريان رغباته فى خور وضعف .

إن قسوة الوالدين تطبعه على احترام الطغيان ، والطغيان وحده ! ! وبذلك نعده إعداداً مهيناً ، ونعلمه ألا يسلس إلا لمن يركب عنقه بالعصا . . وبذلك نفقد فيه غداً كرامته ، واستقلاله الذاتى .

وإن مجاراة الوالدين لرغبات الطفل فى خور وضعف تدربه على العناد، وتعلمه الإصرار على ما يعتقد أو يرى . . إصراراً لا يثنيه إقناع ، ولا تحد من شأنه محاولة . . وبذلك نعده للاستعباد ، ونهيئه ليكون وبالا على نفسه وأمته . . فالأمم لا تمتحن بشىء كما تمتحن بالعنيدين من رجالها، والمستبدين بآرائهم فى صفوفها .

والوالدان بعد هـــذا يستطيعان أن يمنحا أمتهما رجالا لهم قيمتهم فى المروءة ،والنبل ، والسمو الإنسانى ، إذا استطاعا أن يعاملاهم بمثل هذه الخصال ، ويتركاهم يفهمون مواقع معانيهـا فيمن يعاملون . . . كما أن فى اســـتطاعتهما أن يزودا أمتهم بالمتمردين ، والطغاة ، والمجرمين إذا اشتطا فيما يعاملان به أبناءهما ، وتركاهم يفهمون أن ضعفهم عرضهم لظلم الآباء وقسوتهم .

إن الطفل الذى يدرج فى أغلال غليظة من الامتهان يصـــور له خياله المحدود أن الحياة لمن غلب ،فلا ينفك يستجمع قواه فى سكون حتى إذا شعر بمـا توافر له من هذه القوى صبها على أول من يصادفه .. إنسانا أو حشرة . . ويستمرئ هـــذا على مر الأيام ، ثم يألفه بالتدريج حتى يتأصل فى أعماق نفسه . . فلا غرابة إذا بليت أمته به غداً طاغية أو مجرما !!

ثم لا تنتظر بعد أن يتأصـــل الداء أن تجديه مواعظك ، أو تنفعـه نصائحك، أو تردعه عقوبتك . . مهما يكن شأو ذلك ،لأن العقدة قد باتت موثقة . . لا تحلها جميع الوسائل إلا وسيلة واحدة ، لعله يوفق فيها شخص

واحد ، يتمثل فى طبيب نفسانى، يدرس فى استقراء و تبصر حقيقة العقدة، ثم يناقش فى أسبابها ،حتى تتقشع الغشاوة عن فتاتا ،ويتبين وجه الخطأ فيما عقد.. وعند ذاك يبدأ الحل وتشرع أعمال الإنقاذ .

هذه حقائق أقرتها أحدث النظريات فى التربية ،فهل نعقلها اليوم ونحن على أبواب نهضة جديدة ؟ أم نقنع فيها بما جربه المتحضرون من أرقى الأمم وأوسعهم ثقافة ومعرفة ؟

والطفل فى سنه المبكرة لا ينفعه شيء ما تنفعه التجارب التى نصطنعها له ليلمس حقائقها بيده، فإن مثل هذه التجارب الصغيرة تهيئه لفهم النتائج فى حدود ما يعقل ، وتعلمه كيف يتقى شرها بدافع من غريزته .

وإذا رأيت ياسيدتى ـ الأم ـ ولدك يأبى إلا أن يتسلق الكرسى، فلا تنهريه كثيراً ، بل دعيه يتسلق كما شاء، وافرحى لوقوعه إذا وقع ، ما دام الوقوع لا يكسر رجله ولا يهشم عظمه . . ثم لا يرعك إذا تألم أو بكى ، فإنها آلام محدودة ،وبكاء صبيانى لابد منه . وحاذرى إذا رأيته يبكى أن تمعنى فى تأنيبه أو وعظه . . بل اتركيه لما جرب ،ودعيه يأخذ حظه مما وقع ، وثقى تماما أن عقله المحدود سيربط الحادثة الصغيرة بمسبباتها، وأن غريزته فى المحافظة على النفس ستقوم قيام المؤدب الناجع أكثر مما يقوم التأنيب وإرسال نصائحك المملولة .

حدثت سيدة أجنبية من المتخصصات فى علوم التربية عن نفسها فقالت:

كان (جيمى) وهو فى السابعة يأبى دائما أن يأوى إلى فراشه مبكرا

فتركته ذات ليلة يسهر كما يشتهى على شريطة أن يستيقظ كالمعتاد فى الساعة الثامنة صباحا ، فجعل يستمع آونة إلى الراديو ، ويلعب مع أخته أو يقرأ فى كتابه آونة أخرى . . ودقت الساعة التاسعة وهو يجهد ألا يغمض أجفانه . . كان يريد أن يستمع قليلا من الموسيقى . . ولكن ما حانت الساعة التاسعة والربع حتى كان مستغرقا فى النوم فحملناه إلى فراشه.. وفى صباح اليوم التالى ناديناه مرارا ،فلم يستيقظ ، وأخيراً جررناه جراً من الفراش وهو يقول: « لم أنم بعد ما يكفينى » فلما عاد من المدرسة فى ذلك اليوم استلقى ونام بدلا من أن يخرج للعب . . ولما حان وقت النوم فى المساء لم أقل له شيئا ، فذهب إلى غرفته ، وخلع ملابسه ، وقال : « لست أشعر بحاجة إلى النوم . ولكن يحسن بى ألا أعدو الساعة الثامنة، لأنى لم أكن على ما يرام هذا اليوم » .

إلى أن قالت السيده : وهكذا . . فبعض التجارب الصغيرة التى لاخطر منها ، كثيرا ما تفيد الطفل ووالديه ! !

وأقول بعد هذا : إن مثل هذه التجارب خليقة بأن تمرنه على الاستنتاج فى حدود عقليته الصغيرة . فرحى للأمة التى مرن صغارها على الاستنتاج الذى تنمو ملكته كلما نمت مداركهم فى الحياة .

عوجوا بنا نجرب هذا . .

ودعونا نمشى .

الأولادُ عزوةٌ في شغلٍ عن أرقامكم

أجدنى خصصت الأطفال بالكثير ، فأطلت فيما يخصهم ، وليس غريبا أن أخصهم فأطيل ؛ لأن هذه الأرواح الصغيرة قمينة بعنايتنا ، لتتهيأ فى سنها المبكرة للاضطلاع بأعبائنا غدا . . تتهيأ فى أسلوب خاص يغنينا فى شبابها عن الصقل والتحوير ، فالغصن اللدن هو الغصن القابل للتكييف فى غير عناء أو مشقة .

ولقد عنى الرومان قبلنا بهذه النظرية ، فكانوا يحرصون على أسر أكبر عدد من أطفال أعدائهم فى الحروب ، ليحيلوهم إلى منظمة خاصة تتولى تنشئتهم فى أسلوب مقرر ، يفصلهم عن ماضيهم فصلا باتا ، ويعدهم لخدمة الدولة بروح الابن البار الذى أنتجته أيد ماهرة ، وتعهدت تقويمه فى شكل خاص .

وقلد العثمانيون الرومان فى الانتفاع بهذه النظرية فكان لهم جيش من صغار الأسرى ، ينظمون تربيته على أسلوبهم الخاص ليعتمدوه فى مهامهم الخطيرة ، ومواقفهم الحاسمة . . ولقد أثبت هذا الجيش فى أحلك الأوقات الصعبة أن بنيانه كان محكم الأساس ، وأن نظم التربيـــة التى اعتمدت لإعداده هيأت منه رجالا متفانين فى شكل منقطع النظير . . ذلك هو جيش الإنكشارية المعروف فى تاريخ العثمانيين ببأسه النادر وإخلاصه الفذ .

وانتقلت النظرية إلى بعض دول أوربا وأمريكا مع تحوير يؤهلها لاتساع الفائدة ،فكان ولا يزال بعضها يرصد فى موازنته أضخم المبالغ لبناء المدارس والكليات فى مناطق بعيدة عن حدود بلادها باسم العلوم مرة ، وخدمة الإنسانية أخرى .

ونحن لا نناقش مبلغ هـذه الدعاوى من الصدق بقدر ما نناقش المقاصد البعيدة التى تخدمها هـذه المدارس ، فقد هيأت فى طلبتهـا أرواحاً تعدهم إعداداً خاصا لا تعده آلاف الوسائل المستعملة فى السياسة .

ولقد كنا نرى آثار ذلك واضحة فى كثير من المناسبات التى رأينا فيهـا خريجى تلك المـدارس أو المعاهـد يتفانون فى خدمة الدول المربيـة ويفكرون بأفكارها،ويتحمسون لمصالحها حماساً يضاهى حماس أبناء الدول المربية فى صميم بلادها .

نريد أن نخلص من هـذا إلى أن الدول الراقية أدركت قبلنا مبلغ أثر المدارس فى تنشئة الصغار ،فأعدت نظمها إعدادا يكفل غاية خاصة تتوخاها.

فهل أعددنا مدارسنا هذا الإعداد ؟ وهل هيأنا مناهجها لتبث فى جيلنا فكرة محدودة نتوخاها فى الحياة ؟ وهل انتهى إلى علم أساتذتنا فى المدارس أن وظائفهم فى فصولنا إعداد وتهيئة قبل أن تكون شيئاً آخر ؟

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى مدارس تعنى بالكيفية أكثر ممـا تعنى بالكم . فلا المقرر السنوى ، ولا المواد المفيدة ، ولا الكتب المحدودة ـ هى غاية التعليم فى المـدارس ، إنمـا الغاية الأولى هى شىء أبعد من هذا وأعز .

إننا نريد مران صغارنا على الفهم والاستنتاج أكثر مما نريدهم لنلقى ما نلقنهم كقواعد ثابتة وعلوم مقررة .

هذا الشيخ محمد يبدأ حصته فى الدرس بقراءة أكثر مما أورده الكتاب المقرر فى شأن قيام دولة العباسيين بالصورة التى قامت بها ويذكر تاريخ خطواتها باليوم والسنة .

ثم يتلو ما ترتب على هـذا القيام فى ألفاظ ميتة رصفت حروفها المطبعة كما كتبها المؤلف لتكون أرقاما وعلامات لرائدى الموضوع . . لا لتكون حروفا يمل الطالب استظهارها ويتعب من قيودها .

ما أحرى الشيخ محمدا أن ينسى الكتاب إلى حين ، وأن يناقشهم فى الأسباب التى قضت على الأمويين . . ثم يتركهم يستنتجون ما يجب أن يترتب على سقوط الأمويين بعد أن يشعرهم بمكان الجماعة التى أسمت نفسها بالعباسيين ليصور الخطوط الأولى التى يجب فى رأيهم أن تتجمع لتكون نهضة جديدة على أنقاض ما سبقها .

إذا تركهم يجمعون هذه الخطوط ويستعملون خيالهم فى ترتيبها كيفما اتفق ويعدون العدة حسبما تراءى لهم لقيام الحكومة الجديدة . فإن آراءهم ستتضارب فى هـذا الإعداد ، وستتسع خيالاتهم فى تصوير الموقف . وسوف لا يجيدون حبك القصة التى لم يطلعوا على نتائجها . ولكنهم سيتمرنون فى هذا على النقاش، ويتدربون على الاستنتاج وستتسع أذهانهم لتصوير الحقائق ، وتتفتق أفهامهم على بحث المقدمات فى الحياة وترتيب النتائج عليها .

سنتركهم يخطئون ما اتسع الخيال لأخطائهم، لأننا سنظفر لهم فى خلال هـذه الأخطاء بمـا لا تساويه جميع دروس التاريخ ، وسنشوقهم إلى نتائج ينتظرون سماعها منا ، أو من الـكتاب بفارغ الصبر .

وعندئذ فقط نستطيع أن نقرأ عليهم ما قال الـكتاب لنحدد الفـكرة فى نطاق ما حدث به التـاريخ ، ونتركهم يعجبون للمفارقات العجيبـة بين ما تخيلوه فى شـأن العباسـيين ، وما وقع عملياً فى التاريخ . . وسنسمعهم يضحكون أشد الضحك من إغراق بعضهم فيما تخيل أو تصوره فيما تصور . . وسنفرح لهذا الضحك ما وسعنا الفرح لأن تفتق الأذهان وتمرينها وقف على مثل هذه الأجواء المرحة ، المشبعة بفكاهة المفارقات اللذيذة ما دام المرح محدوداً بيقظة الأستاذ وكفاءته الشخصية .

وننتقل بعد هذا إلى حصة الشيخ داود لنراه إلى جانب سبورته ينظم الأرقام الحسابية فى سطور مرتبة يعلمهم فيها كيفية الجمع والطرح .

إنها يا سـيدى الشيخ أرقام صامتة لا تنطق وإن الواد عزوز ومسعد وسعيد فى شـغل شاغل عن أرقامك بعبثهم الشيطانى الذى اصطنعوه ليبددوا سأم الحصة ، وإن عجزك — وأرجو أن تسامحنى فيما أقول — عن (فرفشتهم) واستغلال انتباههم هو المسؤول الأول عن انصراف الأولاد عن السبورة ، وهو المسؤول الأخير عن إغلاق ذهنهم عن الحساب لا فى عامهم الدراسى فقط بل إلى عهد طويل من عهود تلمذتهم لأن أذهانهم التى أغلقت اليوم دون دروسك البدائية ستظل مغلقة فى مآتى أيامهم كما تتركها اليوم .

أيسمح لى سيدى الشيخ لأنوب عنه لحصة واحدة .

« قم يا عزوز : أنت اشتريت سكر بمبلغ ١٣ قرش واشتريت بمبلغ ٩ قروش شاى واشتريت كاكولة بمبلغ ٧ قروش تقدر تفهمنى كم ضيعت؟ » .

هذه عملية حية ليس فيها أرقام صامتة يجب أن نبدأها قبل أن نبدأ الأرقام الصامتة . . إنها عملية من صميم واقع الطفل اليومى يستطيع أن يجاريك فيها وأن يمشى وراء خطواتك إليها فى صدر مشروح ويقظة كاملة ، وإذا استطعت أن تضيف إليها بعض الفكاهة كأن تقول : ثم رأيت البدوى يلاعب القرد فى صور مضحكة تمثلها ولو بيديك . ثم تقول : وقد أعطيت هذا البدوى قرشين فكم مجموع ما صرفت ؟ . . عند ذاك ستجد الولد قد تفرغ لفكاهتك الظريفة وحدد انتباهه لما تقول . . وعندئذ ستجد أنك استطعت أن تملك انتباه التلاميذ فى عموم الفصل ، واستطعت أن تحبب إليهم دروسك وتشوقهم إلى متابعتك فيها .

كما ستجد نفسك استطعت أن تفتق أذهانهم لفهم ما تقرره عليهم وتستطيع إذا غالطتهم فى مرح أن تسر أفئدتهم ، وأن تمرنهم على مناقشة الحقائق ، ومراجعتها وتدريبها على الاستنتاج الفكرى المستقل . . .وبذلك سوف لا تضمن نجاح دروسك فقط بل تستطيع أن تضمن تعشقهم للحساب كفن مدى حياتهم ، وأن تفاخر بعد هذا أنك لم تعن بمقرراتك فى علم الأرقام بقدر ما عنيت بتمرينهم على الاستقلال الفكرى . . وتلك ضالة المدارس الأولى فى حياة شعب يريد أن يواجه الحياة فى قوة وعزم . .

فدعونا نمشى .

تضج الحياة اليوم بالحديد والنار

لا يكفى الأمم أن يمتاز قوادها أو أصحاب زعامتها ، أو فريق من المتقدمين فيها بالروح الواعية التى تحس بحقيقتها بل لا بد لهذه الروح أن تنبعث فى كيان الأمة ، ويشيع أثرها فى جميع الأوساط لتتضافر الجهود ، ويجد المصلحون استجابة عامة أينما اتجهوا ، وكيفما توجهوا . أما الأمة المتأخرة فى مجموعها . . فإن محاولة إصلاحها إرهاق يبدد جهود العاملين ، وربما بعث اليأس إلى نشاط الداعين .

وانتشار التعليم فى صفوف الأمة بصورة شاملة عامة هو الكفيل الوحيد بشيوع الروح التقدمية فى مختلف أوساطها لأن طبقة الأميين لا تستجيب دائماً لإصلاحات المفكرين ، ولا تهضم الآراء الحرة التى يدعو إليها التقدميون . . وهى إلى هذا أشد ما تكون حرصا على ما ألفت من عادات مهما كان نوعها أو نصيبها من التأخر .

أدركت هذا دول أوربا . . فأشاعت التعليم فى صورة كانت لا تحلم بها القرون الماضية . . بنت فى كل قرية أكثر من مدرسة وأنشأت فى كل قسم من أقسام المدن ، وفى كل عطفة من عطفاتها ، دورا للتعليم ولم تقصر عنايتها على التعليم الأولى أو الثانوى بل شملت بجهودها جميع درجاته المتفاوتة ابتداء من الروضة إلى آخر ذروة فى أنواع التخصص العالى .

ولم تحرم المسجونين فى أى درجات السجن ، والمتشردين ، ونزلاء

الملاجىء ، وأصحاب العاهات ، والعميان ، والمشوهين من فضل العلم . . أباحت لكل فريق حصته الوافية من مناهل المعرفة ، ولم تعجز حتى عن تنوير العميان والبكم ، فابتكرت لهم مايعينهم على تذوق العلم ،وساعدتهم على اللحاق بصفوف أترابهم فى الحياة . . فشاعت المعرفة بين طبقات الأمم واستطاع مجموعها أن يتقارب ثقافيا وذهنيا . استطاعت المعرفة أن توحد بين طبقات الأمة الواحدة فى أسلوب الفكر ، وأن تعدها إعداداً جماعيا لتلقى الآراء الحرة ، والأفكار الجديدة ،وأن تشعر شعورا جماعيا بحاجتها إلى التضامن فى سبيل ما يرفع شأنها ويعزز مكانتها .

ونحن على أبواب نهضتنا اليوم نلمس هـذه المعـــانى فى كل حركة نخطوها . . لا زلنا نعانى عصيان الطبقات غير المتعلمة على كل مايجد لدينا من أفكار ، ولا زلنا نقاسى عنتهم ، وشدة محافظتهم على ما ألفوا . . وليس هذا غريبا على أذهان لم تفتقها المعرفة ، ولم ينورها العلم .

لا يزال يعيش بيننا اليوم من يرى أن الأوربيين خدم هيأهم الله لتمطيهم إلى حاجتنا . . فهو لا يستغرب أن نعجز عن صنع ملبوسنا ،ومفروشنا، وجميع الأدوات والآلات التى نحتاجها فى شتى مرافقنا . . لا يســتغرب هذا لأن الله كما سخر الحيوانات لقضاء مآربنا خلق الأوربى ـ فيما يرى ـ ليخدم أغراضنا فى الحياة . لايستغرب هذا لأن عقليته المحدودة لاتتسع لتصوير الأشـياء على حقائقها . ولو اتسعت للتصوير والفهم لبكى أسـفاً على مافرطت أمته، ولاستطاع أن يدرك أننا فى عوزنا إلى مايصنع الأوربى،

وفى حاجتنا إلى ما يتفضل به علينا مما يقيم أودنا ـ نمتهن أنفسنا ونضع بين يديه عموم مقدراتنا ليتصرف فى شأنها كما يحلو له .

لدينا من يفاخر بأنه ورث الطوافة أو الزمزمية مثلا من جد عريق فى النسب شامخ فى المجد ، ولو علم أن مأساة بلادنا اليوم فى الاقتصار على مثل هذا الاحتراف، وأن أمثال هذه المهن هى علة تأخرنا من قرون ـ لبكى حزنا على ما أضعنا ، وتمنى إلى الله أن ينسى أحفاده هذا التراث ،ويواجهوا الحياة الصاخبة فى الأسلوب التى تواجهها به أمم البلاد الراقية .

الحياة اليوم تضج بالحجارة التى يطحنونها ، وأغوار الأرض التى يحفرونها ، وغياهب البحار التى يغوصون إلى أعماقها ، وآفاق الجو الذى يركبون متنه . . تضج بالحديد ، والنار ، والفحم ، والبنزين ، والكهرباء والآلات الجبارة . تضج بالسواعد المفتولة ، والعزائم القوية ، وألوان ممتازة من الثبات والشجاعة ، كما تضج بالنظريات المبتكرة والتجارب المستمرة ، والدراسات التى لا تنقطع .

هذه حياتهم الصاخبة التى استطاعو أن يروضوا بها الحياة واستطاعوا أن يملكوا فى فدافدها ما لا يقف عند حد .

هـــذه حياتهم التى أباحتهم التملك فى رقابنا . . ماديا ، أو أدبيا ، أو علميا ، أو اجتماعيا . فهل نسميهم بعد هذا خدما مسخرين أم نعترف بمكانتهم العالية التى سودتهم على وجه الأرض ؟

إن فى البلاد الحية اليوم أمم يقظة تدرك كنه حياتها ، وتفهم أن وسيلتها إلى الحياة المعززة المكرمة هى العمل الجدى النافع . . تفهم هذا فهما جماعيا لا يستثنى منه حمال الأخشاب فى الغابات ، ولا حفار الأرض فى المناجم ، ولا وقاد النار فى المصانع . . .فإذا قامت بينهم فكرة،أو صاح بينهم صاحب رأى لا يعجزون عن تفهم ما يدعو إليه ، ولا يتباطؤون عن الاستجابة إذا تبينت لهم وجوه الصواب فيما يرى .

ذلك لأن الذهنيات قابلة للفهم فى شتى طبقات الأمة . لافرق فيها بين عامل أو حمال أو مدير يرأس أهم الأعمال،فقد استوفى الجميع من كل الطبقات نصيبه من العرفان الذى يكفى لتفتيق الذهن ، واستيعاب المعانى العامة لحقائق الحياة ! !

إذا تهيأ لنا فى المستقبل من طبقات الأمة على اختلاف درجاتها مثل هذا الوعى العام الذى يفهم الحياة على حقائقها ، ويستطيع أن يستوعب الفكرة النافعة ، ويعرف كيف يستجيب لها ، ويجند نفسه لخدمتها — فثق أننا سنضمن النجاح لبلادنا ونستأنف حياتنا على الأرض فى عزم وثبات . فامضوا بنا . .

ودعونا نمشى !

~~~~~~~~~
~~~~~~~~~

يتسابقون بين أرجل الحجاج

حدثني صديق لى فقال : كنت أزور اليابان. فمررت مصادفة بحى من الأحياء الفقيرة فى إحدى مدنها . فرأيت سائحا أجنبيا يحمل آلة للتصوير، وقد وقف إلى زاوية فى الشارع الذى ارتاده يصوب آلته إلى بعض النساء الفقيرات الجالسات إلى بعض الأرصفة يعرضن بضائعهن الرخيصة ، فما كاد يفعل حتى هجم عليه أحد المارة واختطف آلتـه فى عنف ، ولم يلبث أن شاركه أكثر من واحد من عابرى السبيل . . كانوا يصخبون فى غضب، ويحتدون فى حماس لأن السائح أراد أن يغافلهم ويسجل بآلته منظراً لا يشرف بلادهم . . فأبى عليهم وعيهم الوطنى إلا أن يحولوا بينه وبين ما أراد . . فكانت الضجة الصاخبة ، وكان المنع بالإكراه .

قال صاحبى . هذا دليل من آلاف الأدلة على مقدار الحب الذى تغلغل فى أعماق اليابانيين لبلادهم .

قلت : إن هـذا ليس حبا فقط لأن الحب فى صورته هـذه لا يقتصر على الجنس اليابانى دون الأمم ، فالمعروف أن جميع الأجناس من غير استثناء تحب بلادها حب اليابانيين لأوطانهم . . يستوى فى هـذا البدوى فى بيته من الشعر ، والزنجى فى عشته من الخوص والإسكيمو فى جحره من الثلج . . ولـكنك واجد إلى جانب حب اليابانى لبلاده شيئا تسميه الوعى العـام المتيقظ .

لدينا طبقات لا تزال تنظر إلى سيئاتنا العامة نظرة الرجل الذى لا يبالى بشىء .

فقد يمر بنا الغريب الحاج ونحن نخلط الهزل بالجد ، ونمزح بألفاظ قد لا تليق بشرف بلادنا . . . فهل يتورع الهازل عن مثل هذه المهازل ضنا بكرامة بلاده وصونا لها عن نقد الغريب ؟

ويزاول بعضنا أصنافا من التجارة الصغيرة مع الحجاج . . فهل يخشى هؤلاء وهم فى سبيل معاملاتهم مع الحجاج سوء سمعتهم ، ويحرصون على نقائها حرصهم على نقاء بيوتهم وصون سمعتها ؟

إن هذا الحرص يقتضينا أن نكون مؤدبين فى معاملاتنا ، مهذبين فى وسائل عرض ما نتاجر فيه . . نترفع عن الحلف الجزاف ، ونلتزم الصدق فيما نقول ، ونأبى الغش مهما درت أرباحه ، لنعود الحجاج على صدقنا وأمانتنا ، ونظافة معاملاتنا ، وإذا التزمنا لأسعارنا قيما محددة رفعنا من شأننا فى نظر الحجاج ، وأعطيناهم عنا صورة تليق بنا كمسلمين كما تليق بنا كجيران لبيت الله الحرام .

ولا تشيع بيننا هذه المعاملات الفاضلة بناء على توصيات ، أو أوامر يصدرها المسؤلون بقدر ما تشيع كنتيجة للتهذيب الجماعى ، والتعليم العام الشامل الذى يتناول الأرواح فيشذبها ، والطبائع فيمرنها على مباشرة أعمالها فى الحياة فى أسلوب يشرف بلادها ويصون عليها سمعتها .

والوعى العام المتيقظ ليس مصدره العواطف الطيبة التى يشترك فيها جميع الأمم من جميع الطبقات فقط، وإنما مصدره ـ إلى جانب ذلك ـ المعرفة العامة التى تناولت روح اليابانى فهيأتها لما ترى .

هذه المعرفة أعدت اليابانى لفهم مركزه الدقيق بين الأمم ، وعلمته كيف يصون سمعته ، ويحرص على الدعوة لها بأحسن الوسائل التى تعزز مركزه .

هذه المعرفة العامة لا تجد آثارها ناطقة فى غضب اليابانى لآلة تسجل بعض المناظر المسيئة فى وطنه ، بل تجدها عامة شاملة فى جميع حركاته التى يتفانى فى أدائها خدمة لبلاده وأمته .

تجدها عامة شاملة فى المصانع التى بناها ، والمدارس التى شيدها ، ومرافق الحياة التى أقامها ليخدم بها مجد أمته .

وقد خدمها ، ولا عبرة بالظروف الخاصة التى هيأته للفشل فى الحرب الأخيرة ، فتلك نتائج كان لا بد منها بالنسبة لأوضاع يعرفها فقهاء الأمم .

وإن أعداء اليابان المنتصرين لا يزالون بالرغم مما حدث يقدرون فى اليابانى رجولته ، ونضجه ، وقدرته على مسايرة الأمم الحية .

نريد أن نخلص من هذا إلى البحث فى حقائقنا الراهنة .

ترى ما هى النسبة المئوية التى تغضب فى بلادنا لسمعتها وتتألم لكرامتها ؟

نحن نرى صغار المرتزقة من المطوفين غير الرسميين يتسابقون بين أرجل الحجاج فى أبواب المسجد وخلف السيارات التى تقلهم بين الشوارع والأزقة فى صور لا تليق بمهنة التطويف التى انتدبوا أنفسهم لمزاولتها حول الكعبة، فيحز الألم فى صدورنا ، ونتمنى على الله أن يلهم الرشد هؤلاء المرتزقة الذين يسيئون إلى معنويتنا فى بلادنا ، أو تضرب الحكومة بيد من حديد على أعمالهم . . فترهق ضعفهم ، وتسىء إليهم فى معيشتهم الضئيلة ، وتتفق مع قسوة الزمن على كواهلهم الرقيقة . . . نريد هذا أو غيره لتغيير الأوضاع . . ولكننا نجهل أنه ليس ثمت علاج صحيح غير إشاعة التعليم إشاعة عامة تتناول الطباع والأرواح أكثر مما تتناول شيئا آخر .

لو تهذب مستوى هؤلاء فيما يتهذب من مستوى الطبقات لرأينا من يغضب لكرامة البلاد ،فيأبى أن تبقى السليقة غير المؤدبة عنوانا لأعمالهم ، ولرأينا بعضهم يقود البعض إلى اتفاقات تجمع شتاتهم وتوحدهم صفوفا ينظمونها فى المسجد . بل يصونون أنفسهم فى ترتيب كامل يهيئهم لخدمة الحجاج واحدا بعد الآخر فى نظام مشرف وأسعار لا تقبل المساومة .

إنى هنا فى سبيل ضرب المثل لا أكثر . . فلست أريد أن أخص طائفة بعينها فى البلاد . ولكنه السياق تتداعى معه الأمثال الحاضرة .

إنى أعرف أنها ليست الطبقة الوحيدة التى تسىء بأعمالها المضطربة إلى سمعة بلادنا ، وإنما هناك طبقات أخرى على مثالها، لم تفكر بعد فى واجباتها

نحو سمعتها وكرامة بلادها . وهى فى رأيى معذورة لجهلها كل العذر ، ولا نستطيع مؤاخذتها إلا إذا استطعنا إشاعة التعليم بين جميع الأوساط ، وتوجيهه توجيها خاصا يعنى بالأرواح والطبائع والأخلاق، أكثر مما يعنى بحشو المعلومات واستظهارها .

وإن آلاف القصص والمواعظ وآلاف النصائح لا يمكن أن تترك أثرها فى تهذيب المجتمع ما دمنا نعنى بإيراد حروفها ميتة الألفاظ .

اللى يعرف أبونا يغشنا

ونضيف إلى بعض طبقاتنا من السوقة وصغار الباعة والمرتزقة الذين لم يتهيأ وعيهم لفهم علاقتهم بكرامة بلادهم صنفا آخر لا يقل عنهم جهلا بواجباته . أولئك نفر تعودوا التنزه أو الاصطياف أو السياحة فى آفاق الأرض، وساعدتهم إمكانياتهم الخاصة على التبذل فى النفقة ، فنسوا علاقتهم ببلادهم ونسوا أن لبلادهم مركزا دينيا خاصا لو تضافرنا على صيانته ، واتفقنا على الحرص على كرامته فى جميع البلاد التى نغشاها ـ لهيأنا له مركزا ممتازا فى نظر المسلمين والأجانب ، واستطعنا أن نحتل بين مئات الشعوب التى تتجه فى صلاتها نحو بلادنا مقاما له حرمته ، وله قداسته التى لا تضاهى .

ومأساة المآسى فى نفر من المرتزقة يجوبون بلاد الشرق العربى يرتزقون باسم الكعبة والحرم ، وينسون أن الحرم لا يقهرهم على ما يبذلون من كرامتهم ، وأن الكعبة لا يشرفها أن ينتسب إليها إلا المجد العامل فى ميادين حيوية لها قيمتها .

ومن الغريب أن تغتنى بلادنا فى سنيها الأخيرة ، ويفيض الخير فى آفاقها ، وتتسع مجالى العمل لكل مجد نشيط ، ويجد جيراننا على اختلاف

أجناسهم فى ربوعها ما يدر عليهم أخلاف الرزق . . فتتوافر هجرتهم إليها ويجدون الفرص سانحة لبناء بيوت لهم صناعية، وأخرى تجارية ،فيعرفون كيف تنمى الثروات . بينما يهجرها بعض أصحابها إلى مختلف الأصقاع ينشدون الإحسان ، ويستدرون العطف فى حياة يمرغها الذل ، وهامات تطأطئها المسكنة ! !

إنهم لا يستطيعون إدراك مبلغ الإساءة التى لا يسيئون بها إلى أنفسهم فقط . . بل ينالون فيها بلادهم بما يشوه سمعتها . . لأن مستوى معلوماتهم فى الحياة لا تتسع إلا إلى مدى محدود يرون فيه أنفسهم كسوبين يحتالون للرزق على قاعدة (اللى تغلب به العب به ! . . واللى يعرف أبونا فى هدى القرية يروح يقوله !) إنهم معذورون لأن أفقهم الفكرى لا يتسع إلى أبعد من هذا المدى ، ولأن معلوماتهم العامة لا تهيئهم لفهم الحياة على غير هذا الوجه الكالح المقيت .

وما دمنا فى صدد هذا النوع من مساوىء الحياة فلنعد من جديد إلى حيث بدأنا بحوثنا فى حدود بلادنا لنستعرض ألوفا من هذه الأشباه استمرأت استدرار العطف ، وألفت ذل السؤال ، واحترفت ألوانه فى إبداع لا يتوافر كثيرا لأصحاب الأعمال المحترمة .

ولعل هذا الشر كان محدوداً قبل سنوات . . ولكنه فى أيامنا الأخيرة شرع يتفاقم لغير باعث معقول . لأن المنتظر بعد هذا الثراء الفائض أن يستغنى الأهلون وفى مقدمتهم طبقات ما تحت الوسطى عن

أعمال لا تشرف ، لأن أبواب العمل التى تفتحت للمجاورين والغرباء أحرى بأن تتسع لأصحاب البلاد لو استعملوا حذقهم فى النافع المجدى .

وتبدو آثار تفاقم الشر واضحة فى أعمال بعض القبائل من جنوب البلاد فقد نزحت عائلاتهم فى ألوف مؤلفة إلى مكة وجدة ، ولعل بعضها نزح إلى المدينة ، فأصبحنا نشاهد رجالهم فى أجسام يلمع السواد فى بشرتها ، ويكتنز اللحم فى عضلاتها ، يحترفون حمل الأثقال فى دأب وصبر ، ثم لا يتورعون أن يبيحوا لنسائهم وفتياتهم وأطفالهم أن يرتادوا الأسواق فى جماهير غفيرة ويستعطوا الناس فى إلحاف يدر الشفقة .

إن فى هؤلاء النسوة وفتياتهم استعداداً طيبا للتكسب من خدمات البيوت فى وقت اشتدت حاجة البيوت إلى الخدم ، وتفاقمت الأزمة لقلة الأيدى العاملة فيها . ولكنهن لا يفكرن فى هذا التكسب من تعاطى المهن ، وربما شعرت الواحدة منهن بما يهين كرامتها وأنت تعرض عليها العمل الذى يغنيها عن ذل الحاجة . لأنها ترى أن احتراف السؤال لا يقل قيمة عن احتراف أية مهنة تدر الكسب .

وهن معذورات فيما يرون ؛ فإن معلوماتهن عن الحياة لا تتعدى ما رسم فى أذهانهن عن حقائقها المشوهة .

ورجالهن معذورون ؛ لأنهم حرموا نعمة العلم الذى يفتق أذهانهم على سوء ما يرتكبون نحو بلادهم وهم يعطون عنها هذه الصورة الدنيئة .

أتستطيع أن تدلى إلى أحد هؤلاء الأزواج بما يقنعه بسوء ما يتصرف؟ أو تستطيع أن تحول اعتقاد المرأة فيما تفعل؟ . . إن بلاغتك فى هذا السبيل لا تغدو أمام ناظرها إلا لغوا تلوكه، أو رطانة تشبه أعقد ما فى لغة الأعاجم من كلام ! !

لنعلم هؤلاء قبل أن نعظهم، ولنثقفهم قبل أن نرشدهم . . لنعلمهم إلى أن يخلص منهم أناس تتفتح أذهانهم لقواعد الحياة الصحيحة، ونعلمهم حتى تتسع مداركهم للمعانى السامية التى تشرفهم، وحتى يستطيعوا فهم النبل والإباء، وما فى النبل والإباء من أخلاق كريمة .

إن الرجل الحر سيندى جبينه خجلا لمرأى هذه الطوائف تلاحق الحجاج والزوار فى الشوارع والأزقة والبيوت، وفى مسجد الله الحرام فى صور مزرية ومناظر مؤلمة، ويتمنى لو ملك الحكم والنفوذ ليقضى على وبائهم ويطهر وجه البلاد من سيئاتهم . . ولكن مثل هذه القسوة ليس لها من العدل ما يبررها ; فالجاهل معذور فى كل مكان حتى تعلمه ما جهل .

فدعونا نتوسع فيما ننشر من ألوان العلوم، لنخدم بلادنا فى سمعتها وما يليق بمركزها، ونخدم كياننا بما نهيئ له من وسائل الحياة الشريفة .
وأخيراً . .

دعونا نمشى .

□□□□□□□□□□□□

ثم يشترى بأقل من نصف الثمن

أجل ! دعونا نمشى ، ولنكن عمليين بقدر ما يجب ، أو أكثر مما يجب . . فقد مضت القرون نمشى وظللنا مكاننا نطوف الحجاج أو نزمزم لهم ، ونتمتع بأفضل ما يتمتع به الكسالى من استرخاء . . أما اليوم قد أجمعنا على السير ؛ فمن العيب أن نستخذى للذة الاسترخاء . ومن العبث ألا نحزم أمرنا على المضى .

دعونا نمشى . . ولتكن طوائف المهاجرة التى تغص بها بلادنا اليوم أكثر محفز لنا على تفسير معنى المشى ، وليكن نشاطها المشاهد فى جميع حقول الحياة دافعا لنا على العمل النافع المثمر .

إن المهاجرين إلى بلادنا اليوم يضعون أيديهم على أكبر جزء من مرافق حياتنا اليومية فهم النجارون اليوم ، وهم الحدادون ، والسماكرة ، والصباغون ، والحلاقون ، والطباخون ، والبناءون ، والحذاءون ، والخياطون ، والمنجدون وهم المهندسون فى المعمار ، أو فى الميكانيكا ، أو فى الكهرباء ، وهم التجار والمستوردون إلا قليلا ، وهم الباعة المتجولون فهل حفزنا هذا للعمل ؟

إننا لا نزال نعيش كما كنا نعيش بالأمس إن لم نقل إن أمسنا قبل أن نعرف الغنى كان خيرا من يومنا فى كثير من ألوانه . فقد كانت لنا أيد صناعية ، تغنى بعض مطالبنا . فى حياة كنا نعيشها محدودة . . كانت لنا صناعة فى النحاس ، والحديد ، والفضة ، والذهب وكانت لنا أيد تطرز

الحرير ، والقصب،وكانت أسواقنا تزدحم بمنتوجات أراضينا ، وحوانيتنا مشغولة بأيدى عمالنا . . كان منا الطباخ ، ومنا الحلوانى ، والفوال ، ومنا التاجر ، والمستورد . . أما اليوم فقد أزاحنا أصحاب النشاط من المجاورين عن كل ما نمتهن،وخلف من صناعنا الخلف الذى تعلم التأنق والرفاه،وقطع أسبابه بمهن آبائه واستقذر مباشرتها ، وأعد نفسه للتمسح على أبواب الوظائف ، أو هيأها لخدمة الحاج فى أسلوب لا يشرف أناقته الموهومة . . لأن الخادم مهما سمت فى نظره الخدمة لا يستطيع أن يسمو عن مركز الخادم .

ما يمنعنا أن نسابق المجاورين إلى ما سبقونا ، وأن نستعير نشاطهم الملموس فى مرافق بلادنا ، وما بال الباقين منا فى حرفهم يجمدون على قديمهم . . فلا تزال محال الأكل عندنا يندى الجبين خجلا عند رؤيتها ، ولا تزال المشارب العامة والمقاهى لا تصلح لاستقبال زبون محترم . . إلا المحال ، وإلا المشارب التى شرع المجاورون يؤسسونها فى بعض بلادنا كنماذج تدل على مدى الفرق الشاسع بين حالنا وما يجب أن يكون ؟

دعونا ياقوم نمشى فى خطى ثابتة ، شاملة ، تستغرق كل مرافقنا . . من محالنا العامة، وبيوتنا الخاصة . . إلى مؤسساتنا فى جميع مجاليها .. لنثبت للحياة أننا جديرون بها ، وأن أهليتنا للنهوض والتقدم لا تقل عن أهلية غيرنا من الأمم التى تعاصرنا .

وإذا كانت حكومتنا قد بدأت تنفق الكثير فى سبيل تهيئة شوارعنا ، وشتى مظاهر بلادنا لما يليق أن نبدو به أمام الصديق والعدو على السواء ،

فما يمنعنا أن نساير هذه الحركة ونتضامن وإياها على إبراز شوارعنا وما يبدو من ظواهرنا فى أوضاع لائقة ، وصور مشرقة ؟

أرأيتم بعض باعتنا ، وكثيراً من أصحاب الحوانيت بيننا يبرزون ببضائعهم إلى مسافات تمتد بعيداً عن حوانيتهم فيتخذوا من مساحة الشوارع وأرصفتها حوانيت جديدة يضيفونها إلى حوانيتهم ؟ . إنهم بهذا يعصون قواعد الحضارة ، ولا يبالون تجميل بلادهم ومساعدتها على الظهور فى المظهر اللائق المشرف .

قد نعتذر لبعضهم بضيق المساحات التى أسست الحوانيت على قواعدها .. ولكنه عذر لا ينهض بجميع أصحاب الحوانيت كما أنه سوف لا ينهض للمعذورين أنفسهم . لأن الوفى المستيقظ فى أى أمة يهىء نفسه للتضحية فى سبيل التجميل العام ، ويعلمها كيف تضغط على مصالحها الخاصة لتمنح بلادها فرصة تليق بما نتمناه لها من سمعه طيبة .

وما دمنا فى صدد حوانيتنا ، وباعتنا فى الشوارع ، فلا يجب أن ننسى طريقتنا فى المساومة والبيع . . . فهى لا تزال تأخذ أشكالها العتيقة التى بليت ببلاء الأجيال . . لا يزال الزبون الحاج يساومنا فيما نبيع ، ثم يشترى منا بأقل من نصف الثمن الذى عرضناه . . وتلك أساليب أصبحت تزعزع الثقة بين التاجر والزبون ، وأصبحت قواعدها تتنافى مع الاحترام والكرامة ! !

إن تحديد التاجر أسعاره فى محيط دكانه أصبح اليوم ضرورة لازمة لاحترام التاجر واحترام أسعاره . . أصبح التجديد فى العالم تجديداً شمل

جميع أقطار الأرض الراقية ، وأصبح نظاما سارى المفعول فى كل أمة تحترم شخصيتها . فما بالنا نجمد على ماعودتنا أجيال لفها البلى، ودفنها الماضى؟

إن الحاج المحترم لا يسيئه فى بلادنا شىء كما تسيئه هذه الأساليب العتيقة التى يزاولها باعتنا وتجارنا ، وإنه اليوم ينظر إلى معاملتنا من هذا القبيل نظرته إلى شىء مخيف . . فيه من الخداع والختل أكثر مما فيه من معانى الرجولة والثقة . . فما يمنعنا أن نشرف بلادنا فى نظره ، وأن نصطنع الأساليب التى تعلمه احترامنا، فنوفر بذلك ما نبذل من أوقاتنا، ونظفر من راحة البال مايغنينا عن الجدل ، ومايتطور إليه الجدل فى بعض الأحيان من مهاترة ؟

ما يمنعنا أن نتعلم الوضوح فى جميع معاملاتنا التجارية والاجتماعية فى ذات بيننا أو مع الوافدين من ضيوف أو حجاج ، وأن نصون كرامتنا ونكبر بها على الغش إذا كان فينا من يعرف غش البضاعة أو يستمرىء الخداع ، وأن نرتفع عن اقتناص الزبون بالأيمان المحرجة مهما كان لونها من الصدق ، فالإلحاح بالأيمان واللهفة على اقتناص الزبون تسيئان إلى مركز البائع أكثر مما تفيدانه . وتصوره بأبشع مما يتصور به القناصة فى مجاهل الصحراء ؟

سيهزأ بنا الآن قوم ألفوا أساليبهم العتيقة . وسوف لا نبالى بما يهزأون .

فهلموا بنا . . ودعونا نمشى ! !

هذه التبرعات على ما أضرنا

دعونا نمش . . ولا يكون المشى صحيحا حتى تشمل حركته أهم نواحينا فى الحياة .

ولعل فكرة تصنيع البلاد من النواحى البارزة التى تعتد بها الأمم فى نهوضها ، وتوليها من العناية أكبر قسط . . وعند ما أقول « لعل » أقحم هذا الحرف فى غير موضعه المناسب لأن التصنيع شىء لا غنى عنه للأمم ، ولا يجوز بحال أن نسبقه بلعل ، أو غيرها من حروف الترجى .

لا ننكر أن فى بلادنا اليوم طوائف ممتازة من رجال المال ، وآخرين ممن زحفت أرباحهم إلى مراتب الملايين فى أرقام تستأهل الحسد من معاصرينا من الأمم ، ثم لا ننكر أن طوائفهم لم تنل ما نالت إلا بعد الدأب والكد . . ولكن الذى ننكره أو نستنكره أنه دأب محدود ، وكد لم يتجاوز مداه القصير . . . إنه كد ، وإنه دأب فى مجال لا يكاد يتجاوز الاستيراد التجارى ومثل هذا الكد لا يفيد الأمم بقدر ما يسيئها .

إن منافع هذا الكد تكاد تقتصر على خزائن المستوردين أما مجموعة الأمة ، وأما ثروتها القومية فإن ضررها من اتساع الاستيراد لا يكاد ينتهى عند حد ! !

وإن الأمم الحية اليوم لا تبيح لموازنتها العامة أن تتوسع فى بنود

الاستيراد كما تتوسع فى بنود التصدير ، فهى تحاول جهد استطاعتها أن تضغط عمليات الاستيراد لتوفر لثروتها القومية أكبر قدر مستطاع من طاقتها .

قرأنا ونقرأ كثيراً أن بعض الأمم تحرم بعض الكماليات التى يستوردها تجارها لتصون بذلك ثروتها فى حدود بلادها ، ولتشجع الأيادى العاملة فى البلاد على تقليد تلك الكماليات أو تعلم جمهورها الاستغناء عن رفاه صفيق لا يعوضها ما تفقده من ثروتها العامة .

وسمعنا عن أمم أخرى تحارب حتى الضروريات المستوردة من خارج بلادها من مطعم أو ملبس ، لئلا يزاحم ذلك منتجاتها . فهل نستطيع أن نفكر فى هذا ؟ ؟

سنستطيعه إذا أراد لنا المتمولون ذلك . إذا عرف المتمولون كيف يوجهون جهودهم نحو التصنيع ، وعرف أصحاب الملايين كيف ينفقون ملايينهم فى إنشاءات تدر عليهم الأرباح التى تعودوها ، وتغنى بلادهم عن الحاجة التى تقيدهم للأجنبى المستغل .

إن إنشاء معامل للزجاج ، والحديد ، والجلود ، والقماش ، والخزف ، والكبريت وكثير من مستلزماتنا الأولية فى الحياة لا يكلف أصحاب الملايين منا إلا لفتة فيها شىء من العزم ، وشىء من الدأب اللذين جربوهما فيما تناولوه من ميادين أعمالهم الواسعة .

يستطيع الرجل منهم أن يرصد من أمواله جزءا لا تأبه له خزائنه الواسعة والحمد لله ، ليحيل هذا الرصيد إلى آلات جبارة تغنى حاجتنا إلى

صنف أو أصناف من مستلزماتنا اليومية . . التى بتنا ونبيت فقراء فيها إلى ما يصنعه الأجنبي ليتصدق به علينا ولا يكتفى حتى يستنزف باسمها ما نملك من ثروة فى بلادنا .

إن فى بلادنا من الحديد ، والنحاس ، والقصدير ، والفضة، والذهب ، والزجاج ما يهيئنا للغنى الواسع ، وإن فى بلادنا متمولين لا تعجز أموالهم عن تمويل أضخم مشروع من هذا القبيل ولكن ينقصنا أن نفهم هذا .

نحن لا نريد أن ننكر مستوانا العلمى كيماويا ، أو ميكانيكيا ، أو جيولوجيا . . ولكننا نستطيع أن ندعى أن لدينا من الأموال ما نشترى به العلماء المتخصصين من آفاق الأرض . . كما نشترى الأيادى العاملة ، والآلات المنتجة التى تكفى اليوم مؤقتا لتأسيس نهضتنا آلياً . حتى إذا اندمجنا فيما ننشئ تفتحت أمامنا الآفاق وسهل علينا إنتاج العلماء والمختصين .

إننا نسمع أخبار المتبرعين منا لا بعشرات الألوف أو بمئاتها . . بل بأكثر من هذا وأكثر . . فهل جاء هؤلاء المتبرعين أن ثمت مجالا أجدر بالتبرع ، وأحرى بالكرم ؟ . . وأن هذا المجال هو مجال التصنيع الذى ينقذ البلاد من عسرها الذى باتت تئن تحت وطأته وآلامه ؟

هل جاء هؤلاء المتبرعين أن عطفهم على فقر بلادهم فى الصناعة والزراعة أقرب إلى مثوبة الله وإحسانه من كثير من تلك الميادين التى يختصونها بتبرعاتهم فى أرقام تدوى بها الصحف وتضج ؟

هل جاءهم أن علة بلادنا فى قرون هى التبرعات التى كان يغمرنا بها المحسنون فى الإسلام؟ وأن هؤلاء المحسنين لو فكروا قبل اليوم فى إنشاءات صناعية لأحسنوا إلى البلاد بتشغيل الأيادى العاملة فيها ؟

سنقول إن كثيرا من موارد التصنيع الأولية لا تملكها إلا بلاد زراعية وبلادنا غير زراعية والواقع أنه ليس بيننا وبين الزراعة إلا أن ننشط لها ، ونسلمها جزءا من ملايينا فى نظام اقتصادى فيه من الإتقان والخبرة الفنية ما يضمن لنا نجاحا مطردا .

لقد جرب غيرنا إحياء الصحارى والقفار القاحلة فأنتجت التجربة خصوبة طيبة وإنتاجا عاليا فما يمنعنا أن نجرب ما جربه غيرنا ما دامت إمكانياتنا من المال لا تضيق عن مثل هذه التجارب أو أضعافها ؟

لنحفر فى كل بقعة بئرا ، ونقارب بين هذه الآبار فى مسافات تضمن لنا الإنتاج الزراعى . . لنبحث عن المياه المغمورة ، والعيون المطمورة ، ونبنى السدود حيث تتجمع المياه . . لنوزع هذه الأراضى بالمجان على من يحييها ، أو نعرض تأجيرها على المتمولين ، عرضا بأسعار رخيصة مغرية . حتى إذا اجتمع لديهم ما يعوض ما فقدوه وربحوا من ثمارها ما يتكافأ مع ما بذلوا من جهد استعدناها ، وأعلنا بيعها على من نثق فى كفاءته الإنتاجية .

إذا توسعنا فى هذا ، وبذل المتمولون منا أموالهم فى سخاء منظم، وعلى ضوء الخبرة الفنية المستحدثة فى آخر ما انتهى إليه علم الزراعة من ابتكار . .

فسنظفر بنتائج تغذينا غدا عن كثير مما نستورده من مواد طعامنا ، وسنستطيع فى أحد الأيام أن نقف إلى جانب من يعاصرنا من الأمم موقف الند للند ، وألا نبيح لهم أن يشمخوا بأنوفهم أو أن يعيرونا بفقرنا إلى ما يصدرون إلينا من طعام ، أو أن يملوا علينا إرادتهم إملاء للغنى الذى يشعر بحاجتنا إليه ويعرف مقدار فقرنا إلى ما ينتج .

وإذا توسعنا فيما نزرع فسوف لا نعجز فى المستقبل عن إيجاد المواد التى نفتقدها اليوم لنبنى على أسسها مجداً صناعياً يهيئنا لمواجهة الحياة ، ويعدنا لمسابقة الأمم التى سبقتنا فى أشواط واسعة .

إن خطوتنا الأولى إلى إحياء الأراضى الزراعية رهينة بيقظة الوعى فى صفوف المتمولين فى بلادنا وهم كثير ، واقتناعهم بأن ما يبذلون من أموالهم فى مثل هذا السبيل أفضل بكثير مما يبذلونه باسم التبرعات لتكتب الصحف عن أسمائهم وتدلل عليهم بالأرقام الخيالية التى يسخون بها .

ترى ما شأن بعضنا بمئات الألوف من الجنيهات التى يسخو بها لقاء فن يحييه على هامش الحياة وأمامه هذه الحقائق العملية فى صميم الحياة لا يعيرها عنايته ولا يوليها بذله السخى ؟

وإذا توسعنا فيما نصنع كما نتوسع فيما نزرع استطعنا أن نثبت وجودنا وأن ندعم كياننا ، وأن نعتمد على الإنتاج الزراعى كمواد أولية فى وجوه

صناعاتنا المتعددة ، وأن نسخر جبالنا ورمالنا للإنتاج الحى الذى يثبت خطانا .

فهل يعى المتمولون مقدار حاجتنا إلى بذلهم فى أمثال هذه المجالى ؟ وهل يقدرون مبلغ ما نيط بهم من آمال بلادهم وآمانيها ؟ ؟ ؟

نؤمل أن يسمعنا المتمولون وأن يهيئونا . . . لنمشى ! !

لنهدم هذه البيوت !!

إنك لا تمر بأهم الشوارع حتى تصافحك الأماكن الخربة دارا بعد دار فى مسافات واسعة ، ومناطق تكاد أن تتسلسل، وفى هذا فرصة كان يجب أن يتمناها المتمولون ، لأن فكرة التجديد الشامل سوف لا تكلفنا إلا أن نضع معاول الهدم فى هذه البيوت فنسويها بالأرض ، ثم نبنى على أنقاضها دروبا جديدة وشوارع فسيحة ، ونرفع على جوانب الدروب والشوارع دورا حديثة ، تمت فى هندستها وتفصيل بنيانها إلى القرن العشرين بعد أن نقطع صلتنا بجميع ما ورثنا من أساليب هندسة البيوت القديمة .

ولا عجب فى هذا فقد كان آباؤنا يستوحون ظروفهم الخاصة فيما بنوا فأملى ذلك عليهم هندسة خاصة لا علاقة لها بنظام (الشقق) الشائع اليوم فى البلاد المتمدنة أما وقد تغيرت الظروف بتغير الأيام ، واستطعنا اليوم أن نستخدم الكهرباء فى بيوتنا لأغراض شتى . . فى استطاعتنا العدول عن هندستنا القديمة إلى الأساليب الحديثة التى نستغنى فيها عن السطوح بمكيفات الهواء ، ونستفيد لتعدد الغرف (والشقق) بآخر ما وصل إليه فن البناء .

ولعل الذى يؤلم فى أمر الخراب الشائع فى أهم شوارعنا اليوم أن بعضه يمثله دور ورثها خلف فقير لايقوى على استئناف بنائه . . فتركها لعاديات الأيام تزيد فى خرابها ، وتشوه مناظر البلاد وهى تحتل أهم مواقعها المفضلة

وبعض هذه الدور أوقفها محسنون سلفوا، كانوا يرون الإحسان فيما أوقفوا ، فلما آلت الدور إلى الخراب لم تجد من يعنى بأمرها أو يقيم بناءها، فظلت ضحية حسن النية ، تشوه المنظر العام للبلاد ، وتحتل خراباتها مناطق نحن اليوم فى أمس الحاجة إلى تعميرها .

oooooooooooo

تتغبّر دقنُه ويتعَب فى شيله

دعونا نمشى متساندين فى إطار تهيمن عليه روح الجماعة ، فقد جربنا ، وجربنا طويلا فكرة الفردية فما أسأنا إلى بلادنا كما أسأنا إليها بهذه الفكرة !!

كانت أمثالنا العامة تهيئنا لفكرة الفردية وتعدنا لها اعداداً : « أنا عود من طرف حزمة . . كيل ما هو كيلك لا تحضره ، تتغبر دقنك ، وتتعب فى شيله » .

وليس للأمم مرآة تعكس حقائقها فى صدق كما تعكس الأمثال العامة فيها هذه الحقائق .. فدعونا نتبين صورنا على ضوء ما شاع من أمثالنا ونحدد بالضبط مواطن الداء فى كياننا .

(أنا عود من طرف حزمة) وأعنى بهذا أننى عود فى طرفها . . لا أكلف بشىء إلا بعد أن تكلف الحزمة . ثم ينتقل التكليف إلى أطرافها . وفى هذا من روح الفردية مالا يتهيأ معه تساند .

وإذا كانت هذه الأنشودة أغنية كل عود فى الحزمة . فهل يبقى فى الحزمة عود يطالب بألا يكون فى أطرفها ؟ وهل يبقى فيها عود يشعر بأنه هو الحزمة ؟؟ .

إن الجلى الواضح فى شأن هذه الحزمة أن جميع أعوادها صالحة لأن تكون فيها . وبذلك تفقد الحزمة بينها عوداً واحداً يشعر بمسؤليته فيها !!

فلا غرابة إن عاشت حزمتنا ضائعة مدى الأجيال ، ولا غرابة إذا فقدت بذلك كيانها كحزمة ، وأصبحت علاقة جميع أعوادها بالحزمة علاقة الطرف الناشز ! !

أبقيت بعد هذا حزمة لها كيان يستحق أن يطلق عليه كلمة الحزمة ، أم أن فى الإمر مجازاً لا ظل له من الحقيقة وفى البيداء أعواد لا تجمعها حزمة .

هـذه هى الحقيقة إذا أردنا ألا نجامل أنفسنا على حساب مصالحنا ، وهذا هو الواقع إذا أبينا أن نزيف أو يخادع بعضنا بعضا .

هذه هى الفردية المقيتة فى أسخف صورها لايجادل فى شأنها إلا مكابر . أما نتائجها بالنسبة إلى مجموع الأمة فقد لمسناها فى جميع أغراض التأخر البادية فى محيط بلادنا .

ثم هـذا الكيل الذى نرتل له أنشودتنا فى جملة منسقة « كيل ما هو كيلك لا تحضره . . تتغبر دقنك ، وتتعب فى شيله » أنعنى به شيئا غير أننا نعيش محدودين بمصالحنا الخاصة ؟ غير آبهين إلا بما يعنينا فى حدودنا ؟ ؟

لعله يتبادر إلى بعض المكابرين أن يفسر لنا هذا المثل تفسيراً خاصا يدعو به إلى ترك الفضول، ومجانبة التطلع إلى خصوصيات الغير . . ولكن ألا يرى مثل هـذا المكابر أننا توسعنا فى هذه المعانى وبتنا لا نطلق المثل إلا لنعاتب به من يعنى نفسه بالأمور العامة الخارجة عن اختصاص مصالحه المحدودة ؟

هذا إنسـان (خارق الدنيا وحاططها فى حلقه ! !) نعم إنه (حاططها فى حلقه) لأنه يعتنى بأمور غيره ، ويمتـد فضوله إلى الأشـياء العـامة التى تخرج عن حدود اختصاصه ، ولأنه (يحضر كيل ما هو كيله فتتغبر دقنه ويتعب فى شيله) .

أنسمى هـذا فضولا ؟ . . إن للفضول بمعناه الذميم صوراً لا علاقة لها بمـا نحن فى صدده .

قـد أسميك فضولياً إذا وضعت أنفك فى خاصة شؤونى التى لا علاقة لهـا بك . . ولـكن هـذه الشؤون الخاصة قد تترتب عليهـا مضار تتعدى إلى غيرى ممـا يتعلق بمجموع الأمة فهل تكون فضوليا فيهـا إذا وضعت أنفك ؟

تصـور أننى لا أعنى بتربيـة أولادى تربيـة صحيحة ، أو لا أحفل بتعليمهم تعليما نافعـا ، أو أننى غنى أكتنز فى خزائنى الحـديدية أموالا مكدسة لا أفهم ميزة تشغيلهـا . وأبت حميتك إلا أن تعيب تصرفاتى من هـذا القبيل ، وان تتدخل فيما بينى وبين فهمى لحقائق هـذه الأشـياء . . لتـدفعنى إلى ما يجب نحو أولادى وأموالى . أو بالأصح إلى ما يجب على لفائدة المجموع . . فهل تكون فى هـذا فضوليا (خارق الدنيـا وحاططها فى حلقه) ؟ أو تكون (رجل متعمم بالدنيـا ومتحزم بالآخرة) ، أم تكون من ذلك الصـنف الذى (يحضر كيل ما هو كيله تتغبر دقنـه ويتعب فى شـيله) أم أنت رجل حمى تغار لى كما تغار لبلادى إذا نالهـا تصرفى بمـا يسىء ؟ ؟

ليس فى هـذا فضول بل هو الواجب كل الواجب . . لأن تصرفاتى فيما أسلفت فى شأن أولادى وأموالى منكر . وأنت مكلف باسم الدين أن تغير المنكر ،ومكلف باسم الوطنية أن تتدخل فيما بينى وبين فهمى لحقائق الأشـياء . . لتدفعنى إلى إعداد أولادى إعداداً نافعـاً للوطن ، وتبصرنى بشؤون أموالى لأطلقها فى مشاريع حيوية أبنى بها صرحا لأمجاد بلادى .

أرأيت أن وضـع الأنوف لا يكون فضولا فى جميع الحالات ، وأن كثيرا ممـا أسميه شؤونا تخصنى هى فى واقع الأمر حقائق شائعة من حقك أن تضع أنفك فيها لمـا يترتب عليها من مصالح عامة تترك أثرهافى مقدرات البـلاد .

كنت أشاهد فى طريقى دائمـاً أحد البقالين وقد جمع صـغاره حوله فى الدكان فى فسحة ما بعـد العصر وألزمهم بالإكباب على كراساتهم يسـتظهرون محتوياتها فى إرهاق واضحة آثاره على جباههم ، فتجرأت فى إحدى المرات وأسررت إليه ان هذا الإكباب يدفعهم إلى الكلل وأنه يحسن صنعا إلى نشاطهم لو أباح لهم أن يلعبوا فى هذه الأمسيات بعـد أن قضوا يومهم فى أعمال المدرسة ليجددوا ما فقدوه فيهـا من نشاطهم . فمـا كان من صاحبى البقال إلا أن نظر إلى فى غضب ، ثم دار على عقبه ليصيح فى صغارة ـ « كرر يا واد . . . كرر وإلا كسرت نافوخك » .

فكان رداً عملياً نالنى فيه من الكسوف ما ظننى أستاهله لأننى ما زدت فى نظره عن فضولى يضع أنفه فيما لا يعنيه و «يتدخل فى كيل ما هو كيله» فحق عليه أن « تتغبر دقنه ويتعب فى شيله » .

ولو اتسعت آفاق صاحبى لأدرك أن عملى لا يمت إلى الفضول بشىء وأن ما فعلته من صميم الواجب ، لأن إرهاق صغاره سيترتب عليه إساءة إلى مجموع الأمة بعد أن بدت حاجة البلاد الملحة إلى نشء يتمتع بعقول نشيطة وأذهان غير مكدودة .

ولكن من لنا بمن يحدد لنا معانى الفضول فى حيزه الضيق ، ويعيننا على مقت فكرة الفردية التى عشنا ندين بها ، والتى ورثتنا عللا وأمراضا لا نزال نئن تحت آلامها .

نحن فى حاجة إلى التفكير الجماعى ، وإلى الشعور الجماعى ، فلا نبيح لأحدنا أن يشعر أنه عود من طرف حزمة ، لأننا ونحن نتقيد بمثل هذه القاعدة نستطيع أن نسمى أنفسنا جميعا أعواداً فى أطراف هذه الحزمة وعندئذ فسوف نبحث عن الحزمة فلا نجدها .

دعونا نكون أعواداً فى الحزمة على أن يمثل كل فرد منا كيانها كاملا فلا يرى فينا عود طرف ينتظر غيره فى الحزمة ، ولا يرى فينا عود نشاز لا يشعر بمسؤوليته فيها .

دعونا نتساند فنضع أنوفنا فى كل ماله علاقة بمجموعنا كأمة واحدة ذات وطن واحد ، وإذا أبى ضيقو الأذهان إلا أن يحجزوا علينا ما أسموه خصوصياتهم فدعونا ننكر عليهم هذا الحجز إذا بدت لنا أية علاقة بين خصوصياتهم وبين مصالح المجموع .

فنحن لا يجب أن نعترف بحقوقهم المحدودة فى أولادهم ، لأنهم أولاد الأمةولافى أموالهم إلا بقدر، لأنها مادة الوطن .ولافى أخلاقهم ومعاملاتهم الخاصة ، لأنها مظاهر تشرف البلاد أو تسيئها .

إن الزارع فى حقله ، والصانع فى عمله ، والتاجر فى متجره، والموظف فى مكتبه ،والتلميذ فى معهده والمؤلف بين أوراقه ـ جندى فى وطنه بقدر ما هو عائل لأهله . . فلا يجب أن نتركه لما يظن من خصوصياته قبل أن نطالبه بحقوق الأمة عنده .

يجب أن يخدم بلاده فيما يعمل إلى جانب ما يخدم من خصوصياته ، ويجب أن يحرص على فائدة المجموع فيها إلى جانب ما يحرص عليه فى خدمة نفسه ، ويجب أن يرعى كرامتها وسمعتها إلى جانب ما يرعى من كرامة بيته وسمعته .

إذا استطعنا أن نعلم طوائفنا هذا القدر من التفكير الجماعى المشترك وإذا استطعنا أن نلغى من قواميسنا هذه الفردية المقيتة نستطيع أن ننسى أمثالنا الشائعة التى تمنع الرجل منا أن (يحضر كيلاً ما هو كيله) .

دعونا نفهم أن كيل الفرد منا هو كيل المجموع وأن تجارة الفرد وصناعته وعمله كائنا ما كان هو تجارة وصناعة وعمل للمجموع .

دعونا نفهم أن أعوادنا حزمة واحدة ليس فيها طرف ولا نشاز وأننا كما نحن سواسية أمام الله فيجب أن نكون سواسية أمام المسئولية العامة لا يميز أدنانا على أعلانا

وأخيراً ..دعونا نمشى ! !

يطبعونهم على إيثار وطنهم الأصلى

عبنا على أنفسنا فكرة الفردية ولعلنا أسرفنا القول فيما عبنا، ولا نعتقد أننا مع هذا الإسراف أوفينا حقوق البحث .

وفى فصلنا هذا تتداعى أمامنا معانى هذه الفكرة وتشوقنا المناسبة إلى الحديث عن أفراد منا لم يتواكلوا كما تواكل غيرهم عند ما رأى أنه عود نشاز فى طرف الحزمة . بل كان مثلا قويا من أمثلة العمل الجاد . . دأب على النافع المفيد، واستطاع أن يكلل دأبه بنجاح منقطع النظير . . ولكنه مع هذا أبى إلا أن يكون جاحداً فيما دأب ، ناكرا للجميل فيما نجح .

أبى إلا أن تكون جهوده وقفا على أنانيته ، لم يرع فيه إلا ولا ذمة ، ولم يذكر عند ظفره فيها أن له علاقة بوطن يمت إليه ومواطنين ينتسب إليهم . . وأن لهـــذا الوطن وهؤلاء المواطنين حقوقا أدبيـة يجب أن تستوفى ، وديونا معنوية يجب أن تؤدى .

أعرف مواطنا لا أسميه ، أنجبته أرضنا فيمن أنجبت ، ورعته صغيراً فيمن رعت ، وأقلته ناشئا فيمن أقلت . . حتى إذا اســـتوى عوده ، واستطاع أن يهاجر إلى حيث توطنت قدمه ، نسى أهله القدامى وبنى عمومته الأقربين ، ولداته الأدنين ، ونسى أن له وطنا رباه وغذاه كما ربى أباه وجده وغذاهما .

لقد كان عصاميا فى هجرته ، ومثالا من أمثلة الجد فى كده . . استطاع أن يبدأ حياته من جديد بائعا متجولا . حتى إذا نمت تجارته أسس لها مصنعاً زوده بالآلات والمحركات فتضاعف الإنتاج ، وتوسع العمل ، وطارت شهرته حتى تجاوزت الحدود ، وحل محل المتجر بيت تجارى كبير كثير الفروع يوزع إنتاجه على عملاء لايحصى عددهم ، وتبلغ أرقام رصيده فى البنوك مبالغ يعز منالها .

فماذا بعد كل هذا ؟

عرف صاحبنا لمهجره حقوقه فى هذا النجاح . . فاستوطنه ولعله تجنس بجنسيته ، وأقام فيه قريراً بثرائه الطائل ، ولكن . . ولكن ما فعل الله بموطنه الأصلى ؟

أثمت علاقة تذكره بجيرته فى الزقاق ، ولداته فى الحارة ، وأهله من ذوى القربى ، وأصهاره من ذوى الرحم ؟ !

إننى أشفق على قرائى من أصحاب الحمية أن تصدمهم المفاجأة إذا علموا أن صاحبنا نسى جميع ما يمت إلى وطنه بصلة ، وأنه نسى بنسيان ذلك أقرب الناس إليه من أعمامه وأخواله ، وجميع من ينسب إليه من بنين وبنات وعمات وجدات ! !

نسى كل هذا .. واتخذ له من ثرائه نسباً جديدا ، ومن عملائه ومساعديه أهلا وأقارب ! !

فهل بعد هـذا نكران يستحق أن يسمى نكرانا ، وهل بعده جحود يضارع مثل هذا الجحود ؟ ؟

يذكرنى هـذا بجماعة اللبنانيين المهاجرين فى أمريكا فقد فر أكثرهم بصبابة ضئيلة لا يملك غيرها من المـال . . حتى إذا حط رحله فى أى بلد من أمريكا نذر نفسه للعمل ، وللعمل الشاق المضنى ، وظل على ذلك حتى يستغنى ويتسع ثراؤه .

وقد بلغ من اتساع ثروات بعضهم فى أمريكا أن أصبحوا يضاهون كبار الرأسماليين فيها واستطاع كثير منهم أن يؤسسوا بيوتاً تجارية، وأخرى صناعية لا تقل شأوا عن البيوت الـكبيرة فى أمريكا .

ومع هـذا فلم يصرفهم غناهم ، ولم تصرفهم ثرواتهم ، واتساع نطاق أعمالهم عن البلاد التى غذتهم أطفالا ، وأقلتهم صبيانا .

كانوا ولا يزالون يتعهدونهـا بالزيارة حرصا على أوشاج تربطهم بالأقرباء ، والأرحام والأصهار ، ووفاء لمرابع رتعوا فيها ، ونشأوا بين مغانيها .

وكانوا ولا يزالون يعنون بأحداث بلادهم ، وقضاياها ويشاركون فى العمل لها حتى كونوا لذلك جمعيات ، ورابطات تجمعهم على شؤون بلادهم، وأسسوا لخدمة أوطانهم صحفاً ومجلات جعلوها موقوفة على شؤون بلادهم وأنطقوا بعضها بالعربية الفصحى فى بلاد لا تعرف العربية ، وأصدروا غيرها بلغة مهجرهم .. لتكون دعوتهم ذات أثر فعال فى جميع البلاد الأجنبية.

ولم تقتصر الحمية على النفر المهاجر فقد تعدتها إلى أبنائهم وأحفادهم ممن ولدوا فى أمريكا . . آثروا أن يطبعوهم على إيثار وطنهم الأصلى ، وأشربوهم حبه . . فنشأوا يشعرون بشعور آبائهم ، ويشاركونهم فيه الحب والإكبار .

فما بال بعضنا تغريه الثروة ، وتنسيه ماضيه ، وتصرفه عن واجباته نحو البلد الذى أنبت آباءه قبله ، وتعهدهم بما يملك من ذخيرة . . ولا يزال يتعهد أهله إلى اليوم وذوى قرابته ؟ ؟

أبعد هذا نكران يستأهل التسجيل ، وجحود ينتهى بعده جحود ؟

وأنكى من هذا أن صاحبنا الذى أنشأنا من أجله هذا الحديث أصبح فى ذروة جاهه اليوم يستنكف أن يتصل به الغرباء من بنى بلده ، ويتمنى — كما قيل لى — أن ينسى مواطنوه علاقته القديمة بموطنه الأصلى ! !

قيل لى هذا فلم أستغرب كثيرا ما قيل لى . . لأن الجحود فى الأرض ليس بدعة اليوم فهو قديم بقدم جميع الخلال الحقيرة فى الحياة .

لا يزال أمامنا طريق طويل نحارب فيه الجهل الذريع ، والخلال الشريرة . . وليس لنا من عدة فى هذا إلا شيوع المعرفة شيوعاً شاملا يعم طبقات الأمة ويتخلل جميع صفوفها ، وينطلق إلى بوادينا الشاسعة ، ومناطقنا المترامية فلا يترك قرية إلا طرقها ، ولا واحة إلا هبطها ، ولا بيتا من الشعر إلا نزل به .

إذا شاع العلم بيننا هـــذا الشيوع تكشفت أمامنا حقائق الحيـاة ، واستنار أمامنا الطريق ، وتكون لأمتنا الوعى الحى والفهم البصير .

ليس من ينكر أن الجهل الذريع الذى أطبق على بلادنا من عصـور سحيقة تركها لا تميز الأشياء على حقائقها ، وعطل فيهـا ملـكات الفهم والتعقل ، ولا ينقذنا ونحن على أبواب نهضة جديدة إلا أن نعنى بشئون المعرفة عناية تفوق عنايتنا بجميع مرافق النهضة فى البلاد !

التعليم هو الوسيلة الوحيدة التى توسـع مداركنـا ، وتنير أفهامنـا وتعقل عقولنا ، وتعدنا إعداداً صحيحاً ترهف فيه أحاسيسنا وتؤهلنا لفهم الواجب فى وجوهه الـكاملة .

لا يهولنا أننـا نخطىء الجادة اليوم ، أو نسىء السلوك إلى صراطهـا ، ولا يظنن ظان أن بعض خلالنا المستهجنة جبلة تكونت بتكوننا ، فقد سبقتنا شعوب كانت تعانى شراً مما نعانى اليوم حتى إذا انبثق الفجر فى سمائها وسطع العلم فى أركانها استطاعت أن تستبين الطريق ، وتستوضح الجادة ، واستطاع العلم أن يصوغها من جديد .

دعونا نمشى .. وحسبنا إغراء بالمشى جماعة الرائدين فى الأمم الناهضة فقد رأيناهم يتكـلفون شظف العيش ، وأوصاب الحيـاة فى سبيل نظرية

يثبتونها ، أو فكرة يخترعونها أو شبراً فى الأرض يكسبونه ؛ خدمة لبلادهم وإيثاراً لبنى جلدتهم ، فكم ضحى المجازفون ، وكم تعرضوا لأشد الأهوال خطراً وكم جالدوا فى صبر ورضى براً بأوطانهم .

لم يؤهلهم لكل هذا إلا المعرفة التى صقلت أفهامهم ، وأعدتهم لمواجهة الحياة . . .

فدعونا نسلك فيما يسلكون ، ونمضى إلى حيث يمضون .

دعونا نمشى ! !

أكانَ هذا مِنْ عَمَلِ الجان ؟

دعونا نخط خطو المتقدمين .. لانفكر بغير أسلوب العصر ،ولا نحيا بغير حياة العصر .

إن نظرة عميقة إلى الأصول الصحيحة فى ديننا تبين لنا المدى الواسع الذى يتيح لنا التفكير التقدمى إذا أحسنا التفسير والفهم .

خطب أحد الوعاظ المسلمين فى باريس يدعو إلى تعاليم الإسلام فوقفت إحدى المستمعات ترجوه أن يكتب لها حجابا يعينها على إنجاب الذرية.. أسوة بما يفعله المسلمون فى مثل هذه المناسبات فقال: « ياسيدتى!! إن عمل المسلمين لايكون حجة على الإسلام فى جميع الأوقات، كما أن أعمال اليهود والنصارى ليست حجة على تعاليم ما أنزل اليهم » .

ثم قال « وإن فى موضوعك ياسيدتى ما أشار إليه القرآن فى صراحة لا تحمل اللبس فقال تعالى (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما .) فلا محل إذن للحجب التى يصطنعها بعضهم لينجب الذرية إذا كان قد سبق فى علم الله أنه سوف لا ينجب » .

وليس فى هذا مايمنع من مباشرة الأسباب لأن الأسباب المشروعة لا يطعن فيها الإسلام ، ولا يمنعها بل يوصى بها ويلزم ولكنه يمانع بل ويحارب جميع الأسباب غير المشروعة مما لايقره عقل ، أو دليل محسوس .

ولو سايرنا ديننا فتجنبنا جميع الترهات مما لا يقره عقل لوفرنا للمسلمين أوقاتا طويلة بددناها فى مئات مضت من السنين سعيا وراء أباطيل لا حقيقة لها . ولا استطعنا أن نجعلهم يستفيدون مما بددوا فى أشياء عملية يسابقون بها من سبقهم إلى الهواء فركبوه ، وإلى البحار فغاصوها وإلى طبقات الأرض السفلى فاعتصروا خيرها .

فى سبيل الشيطان آلاف الأفكار التى أنجبناها فى عصور مظلمة . نظمنا فى خلالها قواعد للاتصال بالجان واستخدام الشياطين وغيرها ، وغيرها مما نستلهم فيه النجوم والكواكب ، وعناصر الكون وراء المجهول .

أترانا كنا من السذجة والغفلة بمكان ممتاز حتى استطاعت الشياطين أن تستهوينا بترهاتها وأباطيلها ، أم كنا حاذقين فلم نعجز عن امتلاك الجان واستخدامهم ؟

كنت أتمنى لو يصادفنى شخص واحد من ذلك الرعيل المجد . الذى أفنى حياته فى الهمهمة والدمدمة ، ليثبت لى بدليل محسوس أنه استطاع أن يحتكم على جنى واحد لا يزيد على حجم دويبة صغيرة يسخره لشؤونه ، ويتحكم فى مقدراته .. إذن لثبت لى أننا عمليون ، وأننا فيما صرفنا من أوقاتنا فى أجيال طويلة لم نكن مسرفين أو مبذرين بل كنا من الحصافة بحيث نعرف كيف نعطى لنأخذ ، وكيف نصرف من أوقاتنا ما يعود علينا بالعوض النافع .

حدثنى عجوز قضى صدر شبابه دؤوبا فى تجارته الواسعة حتى كون ثروته من أرقام تستحق الحسد فقال : وإنى لفى عنفوان نشاطى إذ صادفنى دجال

يدعى تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب إبريز .. فاستهوانى حديثه فيما يمتهن واستوصفته طريقة العمل فلخصه لى فى جملة مقتضبة .. فرأيتنى أعقد العزم على تقليده فيما وصف ، وأواصل الدأب الذى ألفته فى تجارتى فلم يحل الحول حتى جاء الدأب الزائف على جميع ما أملك ! ! وليتنى بعد هذا اقتنعت بما جربت !!

قلت أو تنوى أن تمضى فيما وهمت أكثر مما مضيت ؟ قال إننى لا أزال بعد هذه السن الطاعنة مأخوذاً بما استهوانى من صناعة الزيف ولا يمنعنى إلا فراغ اليــــد !!

قلت كذلك دأب الأمانى الباطلة تستهوى عقول السذج وتغريهم بزيفها الكاذب ولا أمل لتبديد ما يلمع من برقها الخلب إلا فى انقشاع الغشاوة السائدة على أبصار الضالين .

وأمثال هذا المخدوع فى الشرق عدة لايوفيها الحصر ... أضلتهم نظريات سجلها الدجاجلة والممرورون فى عصور مظلمة تعاقبت عليها أجيال وأجيال ولايزال سحرها يلمع فى أبصار غشاها التمويه ، وأعماها الخداع .

لايعلم إلا الله كم ورثنا من آلاف الكتب التى بحثت عن قبائل الجن الأحمر ، والجن الأصفر وملوكهم المتوجين وخدمهم المسخرين ، ولايعلم إلا الله كم دونت هذه الكتب من (أوفاق للجلب) والجذب ، وخدمة العاشقين والمدنفين ، وسجلت طلاسم بلغة من غير لغات الأرض .. بعضها يعالج الأسقام والعلل ، وبعضها يعالج الجنون وأوهام النفس وبعضها يفتح

الكنوز المخبوءة ، أو يسهل الأرزاق المعسرة وبعضها يحول دون فتك السيوف والأرماح ، وبعضها يساعد على امتطاء بساط الريح ، أو يعين على تجميد المياه للراكب والماشى ، وبعضها لخدمة جميع الغايات ومختلف المآرب .

ترهات أضاعت عمر الأجيال فى بلاد الشرق وضيعت من فرص الحياة عليه ما لاتعوضه الأجيال .

ورثنا هذه الكتب من عصور الظلمة ، وعكفنا عليها عكوف المجانين فتركنا غيرنا يتحين الفرص ويكتسب الوقت .

لعلهم لم يرزأوا بالشعوذة التى رزئنا بها ، ولم يرثوا هذه الأرتال من التدجيل الذى ورثناه .. فاستطاعوا أن يحتفظوا بأذهانهم صافية وعقولهم صحيحة .. استطاعوا أن يمرنوا تلك الأذهان على الاستنتاج والبحث ، وأن يتركوا عقولهم تحتك بما يصقلها ويزيد فى حرارة طاقتها فابتكروا لنا فى الحياة ما يعجز عنه الجن واخترعوا فى مرافقها ما لا يقوى عليه الشياطين .

أكانوا يستخدمون الجان عند ما نقلوا أصواتهم فى الراديو من أقصى الأرض إلى أقصاها ؟ أم كانوا يمتلكون المردة عند ما ذللوا الهواء ، لطائراتهم ، أو البحار لماخراتهم ، وأعماق المحيطات لغواصاتهم ، وآفاق الأرض لتجاربهم الجهنمية التى أتاحت لهم امتلاك ناصية العالم وسودتهم فى جميع القارات ؟

أكان هـذا من عمل الأبالسة وإيحاء الجن وتعليمهم ، أم كان نتيجة لتمرين العقول ، واحتكاكها بالأمور الجسيمة والحاجة الملحة ؟

ماذا صنع الجن لنا فى عصور طـال دهرها كنا فيها نهمهم بأسمـائهم وندمدم، ونقسم عليهم بالأيمان المحرجة، والتوكيدات المغلظة، ونهتف بأسماء كبارهم وألقاب ملوكهم ؟؟ أبنوا لنا طائرة واحدة نطوى بها أبعاد السماء أم صنعوا لنا رصاصة واحدة نقاتل بهـا الأعداء ؟؟

أنجادل بعد هذا فى ترهاتنا، ويتبجح بعضنا فيغرينا بإلغاء عقولنا لنستمع إلى أحاديثه فى مبلغ استفادتنا من امتلاك الجن وتسخير العفاريت، وضرورة استعانتنا بالطلاسم والأوفاق ؟ أم نقنع اليوم بما جربنا ونكتفى بمـا نالنا ونحاول أن نجعل من مآسينا دروساً ننتفـع بهـا فى مآتى أيامنا ؟

ومن غريب المفـارقات أن أجـدادنا فى الشرق اتسع خيـالهم قبل مئات السنين . لكل ما نتمتع به اليوم من مخترعات الغرب ، فألفوا القصص التى جعلوا أبطالها يطيرون فى أجواز الفضاء ، ويغوصون فى أعماق البحار ويطوون المسافات الشاسعة فى ساعات محدودة . . اتسع خيالهم لكل هذه الظواهر فأتاحوها لأبطـال قصصهم فى صور تغـاير الصور الملموسـة التى نشاهدها اليوم فى وسائل نقلنا ، صور اخترعوا لها حكايات عن بسـاط الريح والعفاريت الطائرة التى كانت كما تقول حكاياتهم تضطلع بهذه الأشياء فتنقل أبطـال قصصهم عـبر السحاب أو تطوى بهم الأقطـار كما تطويها لنـا السيارات .

وبالرغم من أن الإسلام حارب فى عصره جميع هذه الترهات وتوعد السحرة والمشعوذين إلا أن العقلية الشرقية ما لبثت أن عادت إليها خرافتها واستطاع المشعوذون أن يعودوا إلى كهانتهم ، وتدجيلهم .

لانريد أن نزكى العقلية فى الغرب من كل هذه الترهات فهى لاتزال فى بعض نواحيها تستسلم لدعاة الدجل عندها . ولكن تقدم العلوم الكونية والبحوث النفسية والدراسات المستفيضة فى طبيعة الأشياء أعانت على تحديد وباء الخرافة فى حيز ضيق .

وعنايتهم بتسخير عناصر الكون واستخدام طاقته فى منافعهم كشف لهم عن حقائق دقيقة كانت الخرافة تستغل غموضها فيما تشيعه من تدجيل.. فهل يواتينا اليوم الذى نواجه فيه حقائق الحياة ،وتتسع فيه آفاقنا لدراسة الكون من نواحيه المستعصية ، وتتوافر لدينا الملكة العلمية التى تعيننا على الابتكار ، وتساعدنا على مساهمة الغربيين فيما تنتج عقولهم الخصيبة من مخترعات فى شتى أغراض الحياة ؟؟

دعونا نتفق على تصفية أذهاننا من جميع ما علق بها من أدران الماضى المظلم ، ونعد عدتنا لدراسة الحياة فى توسع يؤهلنا للإنتاج العقلى الذى سبقنا إليه غيرنا . وعندئذ سنرى أن جميع الأوهام التى عاشت الخرافة فى ظلها أجيالا ستتبخر ، ولا تقوى على مواجهة الشمس !! وأخيراً . . دعونا ! نمش !!

اتسع خيالهم فافترضوا ما شاء لهم الافتراض حتى إذا نهض الناهضون فى الغرب استطاع هؤلاء أن يحيلوا كل تلك الخيالات إلى حقائق نلمس اليوم فيها الطائرة والباخرة والغواصة والسيارة وما لا يحصى من وسائل المدنية .

أما نحن ورثة أولئك الذين تخيلوا فقد اقتصرنا على ما ورثنا من أوهام ولم تتسع مداركنا لفكرة واحدة نحيل فيها ما افترضوا إلى حقيقة نلمسها .

إن ألوف الاختراعات التى ابتكرها الغرب والتى أتاح لنا استعمالها فى نطاق استنزف أموالنا، لم نستطع إلى اليوم أن نشارك فى ناحية بسيطة من نواحيها ، ولم نستطع أن نحقق طرفاً واحداً من أطرافها .

هل من علة حالت دون نشاط عقولنا واحتكاكها بالنظريات النافعة الحية ؟ . . أجل فلا يزال سحر الشرق القديم يغشى وعينا العام ، ولا تزال فينا أغلبية تعلق آمالها بعمميات فيها شىء من خوارق السحر نستعرض فيها قوى الجان وكفاءتهم لعمل المستحيلات التى نتخيلها ، ولا تزال منا كثرة ساحة تحفل بكتب القصص المفعمة بأخبار السحر والسحرة ، وحكايات المردة الطائرين وعرائس البحر الغائصات ، ولا يزال إلى اليوم كثير من أطفالنا يستمعون إلى أحاديث العجائز عن ملوك الجان السبعة وعن الكنوز المطمورة فى الأقبية ، وعن طاقية الاستخفاء وعن الحجب التى يندفع حاملها إلى معترك السيوف فلاينالها شىء من أذاها .

وتجند العفاريت لقتال الطائرات النفاثة

نحن لا ننكر وجود الجان وقد حدثنا القرآن عنهم ، ولا ننكر طاقتهم وقد روى الله عن أحدهم أنه يأتى بعرش بلقيس : قال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وقال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ! !

لا ننكر هذا بعد أن حدث به القرآن ، وبعد أن قامت آلاف الأدلة على وجوده فى المجامع المعنية بالروحيات فى هذا العصر ، والأكاديميات المتخصصة لدراسة هذه العلوم .

أقول لا أنكر هذا ولكنى لا أستطيع البت فى أمر هؤلاء الذين نراهم يشتغلون باستحضار الجن واستخدامهم ، ولا أجزم بصدقهم ما لم تؤيدهم براهين ملموسة .

إذا كان العلم فى ذاته صحيحاً فليس كل من يدعيه لنفسه صادقاً فى عصر كثر فيه الدجاجلة وزاد تفننهم فى الخداع والتضليل .

وإذا كان العلم صحيحاً فليس معنى ذلك أن نحيل إلى عمل الجن كل ظواهرنا ومقدراتنا ،فلا مريض عندنا إلا لمسه شيطان،ولا مجنون إلا مسه جنى ، ولا خلاف بين شخصين إلا نسبناه إلى السحر ، ولا أمر ذو بال إلا استعنا عليه بالهمهمة والدمدمة .

إننا ننكر هـذا التعميم ونرفض أن تتلق جميع مقدراتنا عن تصرفات الجن وأن تناط جميع حركاتنا بمشيئة الأبالسة ، وأن نضع عموم مقاليدنا فى أيدى المشعوذين ففى ذلك تعطيل لسنن الكون ، وفيه تواكل يصرفنا عن العمل فى دنيانا بالأسلوب الذى شرعته الحياة للعاملين فيها ! !

لا أدرى، ولا الدجاجلة أنفسهم يدرون لماذا ننسى الهمهمة والدمدمة عند ما تحم الحاجات ، وتدلهم الأمور . . لماذا يقصرون أعمالهم فى تسخير الجن على ألاعيب تافهة ، ولا يوسعون اختصاصهم ليساعدوا على علاج ما ينتاب بلادنا من أمور جسام ؟

إننا نسمعهم يتبجحون بقدرة شياطينهم على خرق العادات ، وقوتهم على امتلاك أعتى النواصى ! ! فما بالهم يسكتون عن خصومنا من رجال الاستعمار ؟ لماذا لا يسلطون سحرهم على قلوب الظلمة فيزلزلوها ، ويرسلون شياطينهم على الفجرة منهم فيؤذوها ؟

لماذا لا يجندون عفاريتهم وأبالستهم ليدفعوا جيوش الغاصبين عن أى بلد إسلامى مغلوب ، ولماذا لا يرسلونهم عبر السحاب ليقاتلوا الطيارات النفاثة ، والقاذفات الفتاكة ، ويأمرونهم فيغوصوا قيعان البحار والمحيطات ليطاردوا آلات الدمار تحت الماء ، ويبثوا معانى الهلع فى قلوب العادين والغاصبين ؟

وإذا كان دجاجلتنا لا يريدون أن يتعبوا عفاريتهم كثيراً فى الدفاع دوننا فلا أقل من أن يسخروهم فى بناء الآلات التى نستطيع أن نقابل بها

أعداءنا ، أو يندبوا بعضهم على الأقل ليختلطوا بعلماء الذرة ، فيسرقوا منهم أسرارها ، وينقلوها لننتفع بها وبذلك يعوضوننا بعض ما أفقدونا من حيويتنا . يوم عشنا مغرورين بفنونهم ، متواكلين على همهمتهم .

إننا نعيد ما سبق أن قلناه من أننا لا ننكر وجود الجان ولا ننكر سخرتهم فيما يتعلق بمشيئة الله . . ولكننا ننكر الدعاوى العريضة التى كثر المتبجحون بها ، وتطاول المزيفون فيها ، ونريد أن يبرز إلينا أحدهم ليثبت لنا أنه موهوب ، وأن الله قد منحه الكفاءة اللازمة لاستخدام العفاريت ، ولا يثبت لنا دعواه فى هذا حتى يجند أمامنا عددا ولو ضئيلا منهم يستطيع أن يترك أثره فى أى ناحية صغيرة يرد بها عتو العادين من المستعمرين فى أقطار الإسلام .

اشتبكنا بالأمس مع الغاصب الدخيل فى فلسطين فاستطاع الغاصب أن يزيحنا عن مواقفنا . وأن يحتل بلاد إخواننا فى الدين والعروبة ، وأن يمزقهم شر ممزق فأين كان أصحابنا ؟ وأين خدمهم وأعوانهم من العفاريت والجن ؟؟

سيقولون إنها مقادير شاءها الله وكتبها على فلسطين فلا نقوى على تغييرها . . ولكن ما بالهم لا يقولون هذا فى جميع ما يتعرضون له من مقدراتنا ؟ أليست جميع حركاتنا متعلقة بمشيئة الله ؟ ؟ أليس أمر المعتوه الذى مسه عفريت متعلق بما كتبه الله وشاء ؟ فما بالهم يحاولون دعاوى علاجه ولا يأبهون لعلاج ما كتب الله علينا من ظلم عدونا ؟ ؟

ألم يعلموا أن الله شرع لنا أن نأخذ بالأسباب فى كافة أمورنا . وأن نعد لخصومنا ما استطعنا من قوة ؟ فما بالهم يراوغون ؟

أمحرومون هم من صدق الوطنية حتى قبلوا التخلى عنا فى أحرج مراكزنا ؟ أم هم مزيفون لا يملكون من علومهم إلا ما يصلح للشعوذة وينفع للألاعيب الباطلة ؟

ما أحلى أن تتشجعوا . فالموقف أحرج من أن يحتمل الخداع . إننا نتمنى أن تكون لفنونكم أثارة من علم صحيح فتعلنوا ذلك فى ثبات وصراحة وتهيئوا أنفسكم لنواجه الغرب بعلومكم ، فنستطيع أن نقول له : أنت أيها الغرب غرب ، ونحن أهل الشرق شرق وسوف لا نلتقى ! !

نريد أن نقول: امض أيها الغرب بجامعاتك ، وأكاديمياتك ، وعلمائك ودراساتك المستفيضة التى أنتجت لك جميع الوسائل التى ابتكرتها لحياتك والتى أعانتك على امتلاك ناصية العالم .

امض أيها الغرب فيما اخترت لنفسك من سبيل ، ودعنا وما نملك من وسائلنا الخاصة ، فنحن فى غنى عن علمك وما أنتج ! ! وحسبنا هذه المواهب التى نسيطر بها على ما تجهل من عمار الكون . . . حسبنا سحر الشرق نسخر به قبيلا من الجن ، نخصصه للنقل الجوى فيغنينا عن طائراتك ونفاثاتك ، وحاملات الطائرات فى بلادك . . وقبيلا آخر نختصه للبحار فى أعماقها وما تحت أعماقها ، يعمل مالا تعمله جميع آلاتك فى هذا الميدان!!

وقبيلا آخر نسخره ليعمل عمل الكهرباء أو يصنع مالا تصنع ، أو يجند مالا تجنده أساطيلك وسفنك ! !

دعونا نقول هذا للغربى إذا كان دجاجلتنا ليسوا دجاجلة ، وليسوا مخادعين . . وبذلك نستغنى عنه فى جميع ما يمتلك ، ونقوى على مواجهته

مواجهة الند للند : هو بعلومه ومبتكراته . . ونحن بسحرنا وقوتنا في استخدام المردة والشياطين ! !

سنستطيع أن نصرخ فى وجهه : لا ظلم بعد اليوم ، ولا استعمار . فأقلامنا الساحرة تقوم مقام الجيوش المدمرة ، وسلطتنا على الجن تخدمنا بأوسع مما تخدم الآلات من جميع أنواعها فى بلاد الغرب ! !

سنستطيع أن نقول هذا أو أكثر من هذا إذا كانت فنوننا فى السحر صادقة ، وملكة دجاجلتنا صحيحة . . أما إذا كنا مشعوذين ، وكانت أقلامنا السحرية لا تملك إلا اللعب ، وإلا التضليل فما بالنا نعلق الآمال عليها ونصرف أيامنا من أجلها فى عبث جاهد وزيف ضال ؟ ! !

نحن لانريد التوسط فإما أن تكون فنوننا فى السحر نافعة لجميع مطالبنا من الحياة، مفيدة فى كل مواقفنا من خصومنا فى الغرب أو لا تكون كذلك. فإن كانت الأولى فلنعلنها صارخة ضاربين بعلوم الغرب من جميع الأنواع عرض الحائط ، وإن كانت الثانية فدعونا نطلق هذه الترهات وننسى أباطيلها ونوفر أوقاتنا للدراسات المنتجة، نتعلمها من خصومنا لنبنى بها ما يبنون ، ونصل فى نهايتها إلى ما يصلون .

أما أن نسلم قيادتنا للسحرة فى بعض ، ونتركهم فى بعض . . نبيح لهم أن يتجهوا فيما يملكون من مواهب فى مواطن اللعب حتى إذا جد الجد تواروا عن أعيننا وراء حجبهم الكثيفة . . فذلك يشبه عبث صغار الأطفال ! !

ليتهم يتشجعون بعد هذا فيعلنوا استعدادهم لقيادتنا أو يعترفوا بعجزهم عن إبلاغنا الهدف فيوفروا علينا جهودا نحن فى حاجة ملحة إليها ، وأوقاتا لا يعلم إلا الله متى نستطيع أن نعوضها ! !

أيها القوم ! حمت الحاجات ، واشتد الأزم ، وأبلج الحق . . فاختاروا السبيل وليس بعد اليوم اختيار ! !

ويأيها القادة فى جميع أقطار الشرق وبلاد الإسلام . قولوا قولتكم الأخيرة فلقد تكالب العالم حولنا ، وبتنا ضائعين وحدنا ، لا نعرف إلى أهدافنا سبيلا واضحاً .. ارفعوا مشاعلكم إلى أقصى ما يصل إليه الارتفاع ، وأعلنوا دستوركم فى أفصح ما يعبر به إعلان ، لنعرف الجادة ، ونتبين معالمها .

نريد أن نعرف بعد اليوم نوع السبيل الذى تختارون . .لنوجه طاقتنا نحو هدف واحد وغاية واحدة .

قولوا أأنتم جادون فتقضوا على دعاة الدجل والتواكل ، ورسل الفشل بين صفوفنا ، وتتسلموا قيادتنا بأيد قوية ! ! متعاونة ؟ ؟

أم أنتم هازلون لنقنع بما لدينا من ترهات ، ونتمتع بمضجعنا بين المشعوذين والزائفين واللاعبين ؟ ؟

أكبر ظنى أنكم جادون ، فاحزموا أمركم ! !

ودعونا نمشى ! !

وأهملناهم .. فأعددناهم للسجون

كنت فى حديث بالأمس مع صاحب لى . . تناولنا فيه رجال المهن عندنا ، وما ينالهم إذا ضعفوا عن الكسب من هوان وذلة .

قال صاحبي : لقد رأيت بعيني رجالا قضوا حياتهم فى أعمال الطين والحجر حتى إذا شاخوا ودقت عظامهم وعجزوا عن الكسب راحو يلتمسون العون من الناس ، ويسألونهم المساعدة .

وقد ترفق صاحبي فى الوصف لأنى أعلم أن كثيراً من أصحاب المهن يضطرون إلى استعطاء الناس ، وسؤالهم القوت إذا عجزوا عن التكسب لضعف أو مرض . . وهو ذنب لم يقترفه إلا أصحاب المهن أنفسهم فقد قضوا زمانهم جيلا بعد جيل دون أن يفكر أحدهم فيما يضمن مستقبله وإخوانه ، ويؤمن حياتهم فيه .

وضمان المستقبل لا يكلفهم إلا أن يثبتوا وجودهم ضمن نطاق مهنتهم ، ويعترف بعضهم بحقيقة البعض الآخر . . . فيضعوا أيديهم فى أيديهم ، ويتعاونوا على العمل لصالح المهنة ، وتأمين أصحابها .

إذا اتفقوا على هذا استطاعوا أن يؤسسوا لهم صندوقا يسند ضعيفهم ، ويقيم عاجزهم ، ويتولى أيتامهم ، وفقراءهم . . ولا يكلفهم الصندوق

إلا قروشا ضئيلة يفرضها يوميا على كل فرد منهم ما دام كسوبا ، قادرا على العمل فى حدود تحتملها طاقته ، ولا يعجز عن أدائها .

هذه القروش الضئيلة إذا تجمعت فى صندوق النقابة لأى مهنة من من المهن استطاعت الاستمرار ، واستطاعت أن تكون مبالغ لها قيمتها ، وأثرها الطيب فى تكوين الجماعة ، واستطاع أصحاب المهنة أن يتخذوها ذخيرة لأيامهم القاسية ، وأزماتهم .

ونظام الصناديق فى المهن يمرن أصحابه على التعاون ، ويدربهم على التنظيم الجماعى ، ويساعدهم على التعارف ، وتبادل الآراء فى المفيد النافع ، ويجنبهم كثيرا من العبث الذى يزجون به أوقاتهم الفارغة .

وهو وسيلة من وسائل المجتمعات الحية يستطيعون أن يهيئوا بواسطتها لهم كيانا له قيمته فى الأوساط والمجتمعات على اختلاف طبقاتها .

ولا يعد صندوق المهنة مجدياً على أصحابه إلا إذا باشرته أيد أمينة موثوق بأمانتها ، وأشرفت على حساباته أقلام دقيقة تعرف من نظام التوريدات والنفقات ما تصون به كرامة الصندوق وتحفظ أمواله .

وليس من شك فى أن سمعته السليمة ، وسمعة القائمين بأعماله فى نظافة وشرف ستسهل للمحسنين من أبناء الطائفة سبيلهم إلى الاحسان ، وتنشط فيهم روح البذل ، وتدفعهم إلى التسابق والتنافس براً بعشيرتهم الأقربين ورجال طائفتهم الأدنين .

ويستطيع الصندوق إذا صينت أمواله ، وضبطت حساباته ، أن يساهم فى رقى البلاد فيؤسس مشروعات تفيد البلاد وتعود عليه بالربح الذى يوسع على أصحابه ، ويغدق عليهم من خيره ومنافعه .

إذا ظفرت كل مهنة بمثل هـذا الصندوق على مثل هذا الأساس القوى . . فقد ضمن أصحابها لأنفسهم حياة مؤمنة ضد الشيخوخة ، والهرم والضعف ، والمرض ، وضمنوا لأولادهم - إذا تركوهم يتامى - جهة ترعاهم ، وتشرف على مصالحهم وتعليمهم .

حدثنى صديق عن صناديق النقابات فى بلد متمدن ، فقال : كنت أنزل ضيفا على عائلة من أوساط الناس تتكون من أم وجدة وصبية صغار كان أكبرهم يبنى قصورا من الطين على ضفاف البحيرة . وقد لاحظت أنهم ميسورو العيش رغم فقد عائلهم فاستغربت هذا . . . ولكن عجبى لم يطل عندما علمت أن والدهم كان يشتغل فى السمكرة . فلما توفى عن يتامى وأمهم وجدتهم كفل صندوق نقابته عيش العائلة بموجب نظام الصندوق . . وبذلك أغناهم عن الحاجة وذل السؤال .

وأخبرتنى الأم أن الصندوق سيظل مكلفا بهم حتى يستوى أود الابن الأكبر ويقوى على تحمل العبء تحت إشراف المهيمنين على النقابة .

هذه صورة مصغرة عن الحياة المضمونة التى تكفلها صناديق المهن فى البلاد المتمدنة . . ولست أغالى إذا قلت إن مثل هـذه العائلة لا مندوحة لها من ذل السؤال وآلام الفاقة لو لم ترعها نظم ممتازة فى بلد راق حتى بنظام المهنة .

كم من عمال روعنا منظرهم وهم يمدون أيديهم بالسؤال بعد أن بلغوا السن التى عجزوا فيها عن التكسب ! فلم يشفق عليهم أناس استفادوا من شبابهم يوم كانوا أقوياء ، ولم تهتم بهم بيوت غنية استفادت من سواعدهم لغناها ، وبنت على كواهلهم كثيرا من أمجادها .

وكم من يتامى شوهدوا يذرعون الطرقات فى أسمال تؤلم الفؤاد ، وتحز فى النفس .. وربما نشأوا مشردين ترهقهم الفاقه، ويسىء الحرمان سلوكهم فيسيئون إلى بلادهم أكثر مما يسيئها المجرم العاتى ، ويصبحون عالة على أمنها ورقيها . . ولا ذنب لهم أو لبلادهم إلا أنهم فقدوا آباءهم العاملين ففقدوا بذلك من يعولهم ، ويشرف على تهذيبهم ، وتعليمهم ، ولم يحفل بهم المجتمع ، فتركهم لحرمانهم .. يقاسون من ذل الحاجة وسوء السلوك ما يؤهلهم للخطر ويعدهم للسجون .

وليس بين هؤلاء وبين استقامتهم كجنود نافعين فى الوطن إلا أن يكفلهم المجتمع ، ويتيح لهم حقوقهم فى الحياة فى صور إعانات ينظمها صندوق المهنة فى ترتيب يكفل لهم العيش ، والتعليم الذى يقيم أودهم .

ليس منا إلا من يعرف جيرانا له أو أقارب أو أصهارا يكابدون من أمراضهم أو ضعفهم ما يبكى الفؤاد القاسى، وقد كانوا قبل ذلك عاملين فى حقل الحياة ، قادرين على التكسب والربح . . حتى إذا امتص المجتمع دماءهم ، واستنفد حيويتهم . . تركهم منسيين فى زواياهم يستدرون شفقة المتصدقين ، ويسألونهم فى إلحاح وانكسار .

فما يمنعنا ونحن أمام هذه المآسى المفجعة أن نعتبر بما كان ، وأن نستفيد به كدرس عملى يفتح عيوننا على مبلغ ما تعانيه أيادينا العاملة . . فنعقد العزم ابتداء من يومنا هذا على تأسيس صندوق المهنة ، وتنظيم موارده بصورة تكفل إنقاذ هذه الطوائف المظلومة ، وتتيح لها نصيبها فى الحياة السعيدة .

ما يمنعنا أن يقوم فى كل مهنة مفكر واحد يدعو إلى من هذا النظام فيجمع حوله من يعتد بأخلاصهم ، ومروءتهم فلا تنفض جلسته الأولى بهم حتى يكونوا قد أعدوا طلب الترخيص بذلك من الحكومة ، وسيجدون من الحكومة ما يشجعهم على مثل هذه الخطوة التى يضعون بها أقوى لبنة فى صرح هذا التقدم .

أيصدق مستمع أنه لا يوجد إلى اليوم بين المهن الشائعة فى بلادنا — وهى كثيرة — مهنة واحدة أدركت حاجتها إلى تأسيس مثل هذا الصندوق ، وشرعت فى العمل له رغم أن بين رجال المهن عندنا من تتسع آفاقه لأبعد من هذه المرمى ، وبينهم من يفهم من حقائق الحياة الراقية مالا يفهمه رجال من أمثالى ؟

أيصدق مستمع أن بيننا من المهن الممتازة كمهنة الطوافة ما يربو عدد أفرادها على الألوف ، وأن من رجالها مثقفين تفخر بهم المجامع ، ومجربين لا يقصر مداهم عن فهم حقائق الحياة ، ومع هذا فإن مهنتهم كانت ولا تزال معرضة لأفظع المآسى شدة وألما . . يتجلى ذلك فى عدد كبير

منهم أدركه سن اليأس فحال دون نشاطه فلم تشفق مهنته على عجزه ، ولم تشاركه الكفاح لعيشه . . ولو حظيت المهنة بصندوق يجمع فتات أغنيائها كقرض لازب لاستطاع الصندوق المفروض أن يقيم أود الطائفة ، وأن يعين فقيرها ويواسى محرومها ؟

نعم إن لدى المطوفين ما يشبه هذا الصندوق إلا أن موارده أضعف من أن تقوم بأود الطائفة ، وتكفل شؤونهم الحيوية . . . إنه صندوق محدود لا يحوى على شىء إلا أن يمد يده إلى الفقير بما تمده يد المتصدق فى بضع ريالات لا تغنى عن فقر ، ولا تجدى إلا لأكلة دسمة تتمتع بها عائلته الفقيرة فى يوم واحد .

إنه ذنب الصندوق ، فإنه لم يؤسس يوم أسس ليكفل تبعات لها قيمتها بين المطوفين . . ولو فعل لألزم الطائفة مبالغ ذات قيمة فعالة تترك أثرها فى كيان الطائفة . . فتعين الفقير على نفقاته السنوية ، وتساعد الشاب على تأسيس مجال يضمن له الربح ، وتقدم للأرامل والأيتام ما يغنيهم عن سؤال الناس ، ويهيئهم للدراسة والتعليم ، والحياة الراقية الشريفة .

ولايستوى لمثل هذا الصندوق أن ينهض بمثل هذه الأعباء، مالم يراجع المؤسسون أو خلفاؤهم عليه نظام تأسيسه من جديد فيفرضوا له الأتاوات المجدية التى تعده لتحمل الأعباء الثقيلة التى تواجه طائفته ، وينظموا نفقاته فى بنود واضحة تتكفل برواتب مستديمة تساعد العائلات الفقيرة ، ويتسع

اختصاصه إلى الإشراف على يتامى الطائفة ، وتعليمهم ، وتوجيههم ، ولا تتوانى عن مساعدة شبابهم بالسلف أو الإعانات التى تفتح أمامهم مجال العمل المجدى .

إذا استطاعت مثل هذه الطائفة أن تؤسس مثل هذا النظام واستطاع أصحاب المهن غيرها أن يحذوا حذوها فإننا سنثبت بأمثال هذه الخطوات أن نهوضنا الجديد نهوض عملى له ما بعده . . فهلموا نجرؤ على مثل هذه الخطوة . .

ودعونا نمشى ! !

ضرب عمرو زيدًا

ويحلو لنا أن نتابع الحديث مع أصحابنا رجال المهن فنتمنى عليهم أن يكونوا حيويين فى كل ما يمت إلى مهنتهم بسبب . فوارث المهنة عن أبيه أو معلمه لا يجب أن يجمد على ما ورث ، بل عليه أن يفكر فى شؤون مهنته على ضوء ما يعرف من تفكير أجداده . فقد كان أجداده يعيشون فى عهود لا صلة بينها وبين القرن الذى نعيش فيه إلا بالذكريات ، والرسم البالى إن كان فى الذكريات وباليات الرسوم ما يستحق الحفاوة .

أذكر أنى قرأت قصة عن وال تركى يسمى داود . كان يعيش فى مصر ، وكان يعجب لجماعة العلماء من النحويين وهم يقتصرون فى أمثالهم مهما تعددت مناسباتها على زيد وعمرو فى صور ورثوها شيخا عن شيخ .. كان يعيب عليهم فيما يبدو قلة حفاوتهم بالتجديد ، وتمسكهم حتى فى الأمثال بالحرفيات التى انتقلت إليهم من أجيال سالفة . فكان يستدعى الرجل منهم إلى مجالسه ويستقبله فى إجلال ، ثم يسأله عن العلة فى تمسك أمثالهم النحوية بزيد وعمرو دون أن تتطرق إلى أسماء أخرى من ملايين الأسماء الشائعة بين الناس ، ثم عن العلة فى تخصيص زيد بمركز الضارب ، وعمرو بمركز المضروب فى أسلوب لا يجرؤ جرىء على تبديله أو تغييره . فلم يخطىء أحدهم مرة ليقول : (ضرب عمرو زيدا) لأن فى ذلك تحريفا

عن الحرفيات التى ورثها عن مشائخه ، نقلا عن مشائخهم ومشائخ مشائخهم إلى الطبقة الأولى التى كان لها الفضل فى اختراع هذه الأمثال .

كان الوالى يعيب على جماعة العلماء جمودهم على هـــذه الحرفيات ، ويتمنى فى تهكم أن يفسر له أحد المشائخ الذين يستدعيهم علة تشبثهم بإيراد هذا المثل بالذات ولكنه كان لا يجد عند من يستدعيه ما يروى الغلة (نعم . . نعم . . إنهـا أمثلة ياحضرة الوالى ذكرها الشيخ عن شيخه عن شيخه) .

فيستشيط الوالى غضبا وينسى تجلة الشيخ فيأمر بجلده وحبسه ، ثم يستدعى غيره وغيره فلا يجد غير هذا الجواب فيستأنف الوالى أوامره بالجلد والحبس حتى اكتظ السجن بهم .

واستدعى إلى مجلس الوالى فى نهاية الأمر شيخ مجدد كان يميل إلى الابتكار وصرف النكتة فقال : أيها الوالى . إن عمرا لص يستأهل الضرب المستمر من يد زيد . فقد جرؤ على اسم مولانا الوالى ، وسرق واوه ليضيفها إلى اسمه . . فاغتاظ زيد من هذه الجرأة ، وانطلق يضربه فى كل مكان يصادفه . . لهذا فلا لوم على النحاة فيما يمثلون .

فضحك الوالى لبراعة النكتة ورشاقة الاستنتاج ، وأمر بمكافأة الشيخ ، وأطلق سبيل زملائه من السجن تقديرا للنكتة البارعة .

وأعتقد أن القارىء الكريم لم يفته موقع النكتة التى أوردها الشيخ . . فإن الوالى كان يسمى داود . وكلمة داود كان يجب ألا تكتب إلا بواوين

ولكننا نختصر ونحذف إحداهما ونعطيها لعمرو اعتباطا لأن كلمة عمرو ليس فى نطقها واو ، ولكننا نضيف إليها هذه الواو فجعل الشيخ عمرا لصاً سرق واوه الزائدة من داود فاستحق أن يضربه زيد ويضربه باستمرار .

هذه الرشاقة فى الاستنتاج المضحك لها قيمتها عند جميع المحترفين الحيويين يقابلها الجمود الحرفى الذى استاء منه الوالى التركى، والذى بلينا به نحن فى جميع ما نحترف من علوم أو فنون أو مهن .

كان جبران خليل جبران يقول : إذا رأيت جاراً لك يستنبت فى حقله وردة صفراء ، وآخر إلى جانبه يستنبت وردة حمراء . . فحاول جهدك أن تطعم اللونين بوسيلة تبتكرها لتستنبت وردة تجمع بين الحمرة والصفرة .

هذه هى العقلية المبتكرة التى ندعو إليها جميع المحترفين والعاملين فى حقول حياتنا من أى لون ، وهذا هو روح التجديد الذى ينقصنا لنثبت وجودنا بين أمم الأرض الحية .

ورث المطوفون عندنا نظما أكل عليها الدهر وشرب، وتقاليدأصبحت لا تمت بصلة إلى القرن العشرين . فما بالنا نجمد على ما ورثنا من نظم ؟ وما بالنا نقدس تقاليد ظهر أنها لا تستأهل التقديس ؟

كان أجدادنا يستوحون تقاليد العصور التى عاشوا فيها فيسيحون بين الأقطار التى عرفوا حجاجها يوزعون البركات فيها بين محبيهم ، ومريديهم،

ويتقبلون هداياهم كما يتقبلها رؤساء الطرق ومشائخ السجادة ، فهل بقى إلى اليوم أمر البركة فى أسلوبه الذى كان شائعا فى الأمصار ؟ أم عم التعليم جميع القرويين وفتح عيونهم على أشياء جديدة أنستهم كل ما كان ؟؟

وهل بقيت النظرة الوقور التى كان ينظرها الناس إلى مشائخ السجادة ورؤساء الطرق وأمثالهم من المرتزقة باسم الدين على حالها كما كانت ؟ أم بات الناس ينظرون إلى ذلك النوع نظرهم إلى الدجاجلة والمشعوذين ؟؟

والواقع أن جل القيم الأخلاقية إن لم نقل جميعها قد تغيرت معاييرها بتغير العصور ،وأن كثيرا من المصطلحات التى تواضعت قواميس القدامى على احترامها أصبحنا فى حاجة إلى تغييرها بغير ما وضعت له إن لم نجرؤ على حذفها من القواميس .

فما بالنا نجمد ونأبى أن إلا نلبس (الجبب) التى فصلت لغير جيلنا ؟ أنعيش بين المعاصرين اليوم بأجسامنا ونترك أرواحنا تعاصر أمما أبادها الزمان وقضى عليها ؟ ؟ أم أننا نعرف صلتنا بالعهد الذى نحيا فيه ولا نجهل ظروفه وملابساته ، ونعرف كيف نماشى أندادنا فيه ؟

إن عامتنا يقولون : « كل زمان يعطى حكمه » وهى نظرية تبلغ شأوها الرفيع بين الحكم . . فمن السخف بمكان أن أركب الشقدف فى عهدالسيارة ، وأمخر البحر (بالسنبوك) فى عهد الباخرة ، وأدهن بالجنزبيل فى عهد الكينين والأسبيرين . . كما أن من السخف أن أستمع إلى نظريات

(سيدنا فى الكتاب) وأنا من متخرجى الجامعة ، وأن أبنى يبقى على غرار ما بناه جدى ، وأترك أحدث ما أنجبه المهندسون فى عصرى .

أجل (كل زمان يعطى حكمه) فقولوا هذا لقادتنا من كبار المطوفين، وقولوه لسادتنا من حفاظ النظام العتيق ، وقولوه لكل مطوف يأبى إلى اليوم إلا أن يلبس جبة جده ، ويمضى فى سياحته بين القرى يوزع بركاته على الساخرين ، ويقبل الهدايا من المتصدقين . . قولوا لهم هذا ولا تنسوا أن تلفتوا نظرهم إلى مجال العمل فى بلادهم التى أصبحت تغص بالرواد والآفاقيين من كل جنس ، ومن كل لون . . قولوا لهم إن الرواد الآفاقيين استطاعوا أن يأخذوا أمكنتكم فى ميادين بلادكم ، وأن يطردوكم إلى قرى الآفاق لتستعطوا الناس وتستدروا رأفتهم ! !

قولوا لهم هذا، ثم صيحوا فيهم أن يجتمعوا، وأن يتساندوا، وأن يدرسوا أحوالهم كما تعودوا أن يدرسوها . . . بشرط أن يصدقوا العزم فى هذه المرة ، وأن يبيتوا النية على العمل المجدى الذى لا يشوبه الصخب ، ولا تثبطه الأغراض .

قولوا لهم تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . أن نصون كرامتنا من العبث ، وأن نجدد من تقاليدنا ما أبلاه الزمان ، وأن نبتكر لمهنتنا ما يتمشى مع أحدث النظم .

قولوا لهم إننا لا نريد أن نقرر دستورا معينا ولا أن نفرض قواعد بذاتها ولكننا نريد جديدا نستوحيه من حاضرنا ، ويتفق فى جملته وتفصيله مع مصالحنا . . على ضوء ما ابتكرته أحدث النظريات .

قولوا لهم هذا ، ولا تنسوا أن تسألوا المتحرجين منهم فى أناة ورفق لماذا يتحزبون ضد التجديد ؟ ولماذا يأبون إلا أن يصروا على ما ورثوا من قديم ؟ أهو استجرار لتقاليد عفى عليها الزمان ؟ أم استدرار لمصالح خاصة يخشون أن تضيع بين أعمال الهدم والبناء ؟

قولوا لهم هذا ، وترفقوا ،فإن الكبرياء والعناد أهم مميزات دعاة القديم فى كل زمان . . . ونحن فى حاجة إلى استدراجهم بما يخفف غلواءهم أكثر من حاجتنا إلى تحديهم ! !

قولوا هذا ، ولا تقصروه على جماعة المطوفين ، فإننا لم ننشىء ما أنشأناه من قول لنخص به المطوفين وحدهم ، ولكن السياق أبى إلا أن يمضى فى ساقتهم لبروزهم بين أصحاب المهن عندنا ، وتميزهم على جميع الطوائف بيننا ! !

إذن فنحن لا نريد أن نختص المطوفين وحدهم بما نقول ، بل نتمنى لجميع طوائفنا ما نتمناه لهم ، ونرجو منهم ما نرجوه من المطوفين . . . نتمنى أن تسود العقلية المبتكرة جميع المهن بيننا من الحداد ، والسمكرى ، والنجار ، والبناء ، إلى الترزى ، والخياط ، والنقاش ، والزراع .

أما التجارة فلا أعتقد أننا فى حاجة إلى التدليل عن مبلغ تأثر نجاحها بالعقلية المبتكرة ، لأن وسائل الدعاية التى لازمت أطوار التجارة فى شتى بقاع العالم المتمدن أثبتت ضرورتها لرواج هذا النوع من الأعمال فى الحياة ، ولأن جمال العرض فى أسلوبه الشائق المبتكر أعطاها مركزا لا تناله إلا عقلية مرنة . . تقبل التجديد ، ويلذ لها الابتكار .

أنرى هذه العلاقات النظيفة ، وهذه المعاملات التى تتسامى إلى درجة ممتازة من الاستقامة والشرف فى جميع أعمال التصدير والتوريد بين التجار فى أكثر بقاع العالم المتمدن ؟ ؟

إنه ـ مع كل أسف ـ لم يكن تدينا أو تخلقا بأخلاق الديانات التى يدين بها التجار والصناع على اختلاف نحلهم فى البلاد المتمدنة بقدر ما هو أسلوب فى العرض ، وتحايل لطيب السمعة ، ودعاية يراد بها الشهرة . . هى فى مجموعها تجديد فى التجارة ، وابتكار فى المعاملة أثبتت التجارب ضروريتها لنجاح البيوت الكبيرة تجارية وصناعية .

فهلا يليق بنا ـ ونحن أجدر منهم بهذه الخلال استجابة لديننا ـ أن نعنى بهذا التجديد ، ونساعد سمعتنا على اكتساب الأحدوثة الطيبة ؟

أجل .. وإنه خليق بنا أن نستجيب لوصايا ديننا فى الأمانة والاستقامة وأن نساير المجددين وندرب عقولنا على المرونة والابتكار .

فإلى الأمام يا بنى قومى . .

ودعونا نمشى ! !

نحلم بالوظيفه ... وان تهل قوافل الحجاج

ويستطرد البحث بنا إلى غير المهنيين من شبابنا الطامح الذى بدأ يعقد أمانيه على وظائف الحكومة ، ويعلق آماله على مراقيها ، ويتخيل أنها الطريق الممهد الميسور إلى الجاه والغنى .

وهى فكرة إن دلت على شىء فإنما تدل على عقلية محدودة النشاط ، لا أثر فيها للحيوية الدافقة ، الميالة إلى التجديد والابتكار .

كانت حياة الوظائف مضمونة العواقب مكفولة المورد.. يوم كانت مجالى العمل فى بلادنا لا تتعدى حدودا ضيقة . أما اليوم قد غزتنا الحياة الجديدة ، واتسعت أمامنا آفاق لاعهد لبلادنا بها . فمن الظلم لشبابنا المتوثب أن يضيق ذهنه أمام هذه الآفاق ، ومن الظلم لآماله الطامحة أن يحدها بوظيفة كل مميزاتها أنها مكفولة الرزق .

إن الآفاق التى تسامعت بنهضتنا الجديدة ، وقرأت عن كنوزها المفتوحة ، استطاعت أن تعرف أن بلادنا باتت مهيأة للعمل المنتج فى كثير من ميادينها البكر الصالحة للنمو..فأغرت الشباب الصالح للحياة بالهجرة إليها . . . فغزانا المتوثبون يتأبطون بعض رؤوس أموالهم ، وغزانا إلى جانبهم ألوف وألوف لا يملكون إلا أروحا فدائية ، وعزائم جبارة . فاقتحموا ميادينا فى شجاعة ، وتركونا على الحواشى نفكر فيما تمنحنا الوظائف من علاوات وما يسدى إلينا الحاج من إحسان .

حتى جيراننا من البلاد الشقيقة التي لا يزيد مستواها العلمي عن مستوانا إن لم يقل عنه ، استطاعوا أن يزاحموا عمالنا فى المجالى الصغيرة . . ابتداء من أعمال الطين والحجر ، وأشغال النجارة والحدادة إلى صب السمنت ، وتسليك البيوت بالكهرباء ! !

فأنت تشاهد اليوم جاليات حضرمية ، وأخرى يمنية ، وثالثة من التكارنة وغيرها ، استطاعوا أن يقتحموا بلادنا من غير مهنة يحذقونها ، أو مال يعتمدونه . . فتوازعوا الأعمال المتوسطة ، وما دون المتوسطة فى البلاد ، واستطاعوا أن يقفوا على أقدامهم ، وأن يكونوا لهم ثروات بالتدريج ، وأن يستبدوا دوننا بجل الأعمال الحرة إن لم تكن كلها ، وبقينا فى أماكننا نحلم بمرتب الوظيفة ، وندعو الله أن يزيد فى عدد حجاجنا ! !

ليتنا نعلم أن بلادنا لا تكمل فيها نهضة ما لم نحذف مهنة الحجاج من مكانها فى صدر قائمة أعمالنا لنضيفها إلى أواخر القائمة ، وينسى شبابنا زهو الوظيفة ، ويحيلونها إلى الضعيف المحدود . . الذى لا تتعدى مراميه فى الحياة إلى أبعد من نظارته الذهبية فوق أنفه .

أعرف فتى كان قد فتن بحب الآلات الدقيقة وهو لا يزال فى سنى الدراسة . . فكان يشترى كل ما يمر عليه من ساعات قديمة (وقمريات) خربة و (شماسى) مكسرة ليشغل وقته فى تفكيكها وإصلاح ما خرب منها، وكان يعيد بيع ما أصلح بأرباح لا تشجع ولكنه كان يشعر فيما يفعل

بلذة لا تعاد لها لذة ، وكان يقول لى إن والدى لا يبخل بما يلزم لحاجاتى ولكن لذتى بما أربحه من عملى على ضآلته لا تضاهيها لذة ما أتسلمه من أبى ! !

وباعدت الحياة بينى وبين هذا الفتى من نحو ربع قرن فلم أسمع من أمره شيئا حتى بلغنى أنه اليوم يملك ورشة ميكانيكية محترمة فى إحدى مدن المملكة ، وأن أعماله فيها تدر عليه أرباحا لا تدرها أرقى الوظائف العالية ! !

وأعرف شابا تخرج من مدرسة عالية يحمل فى يده شهادة تخوله راتبا له قيمته فى دنيا الوظائف ، ولكنه كان طموحا ، فلم يغره الجو الحالم الذى أغرى كثيراً من شبابنا بحياة الوظائف ، فافتتح محلا صغيرا للتوريد ، وشرع يكتب إلى الغرف التجارية فى أنحاء العالم المتمدن يطلب إليها أن توافيه بما لديها من عناوين المصانع ، فلما تجمعت لديه من ذلك جملة طيبة كتب يطلب إرسال ما عندهم من نماذج ، وأسعار ، وشرع يتصل عندنا بكل تاجر يعرفه ، أو يسمع عنه حتى استطاع على مر الأيام أن يكون لنفسه مركز الوسيط بين الداخل والخارج . . وهو اليوم يقتعد كرسياً فخما وراء مكتبه الخاص ، مستندا إلى خزانة حديدية مكتظة بالمبالغ المحترمة التى ربحها من كده ، والتى بنت له مركزه الاجتماعى الممتاز فى البلاد .

وأعرف أكثر من شاب كانوا يحتلون مناصب حكومية فضاقوا بحياتها الرتيبة المحدودة ، ودفعتهم الجرأة على مغادرتها إلى معترك الحياة

الصاخب ، فأثبتوا صلاحهم ، وتكشفت كفاءاتهم عن حقائق انتهت من نجاح إلى نجاح .

إن علاقة أكثر المجازفين الطارئين على بلادنا لا تتعدى المصالح الرابحة ، وإنهم على عنايتهم بأعمالهم بيننا لا يلبثون أن ينطلقوا بأرباحهم كلما جدت مناسبة ليودعوها بنوكهم الوطنية ، وينفعوا بها أرض أمتهم . . . أما بلادنا العاملة ، وأما شـــبابنا المجازف ، فلا مجال لنتائجهم وأرباحهم إلا فى بلدنا العزيز .

سيقول اليائسون : ولكن أين هذه المجالى ؟ وأين مكان المهن التى تدعونا إليها ؟

نحن بدورنا نستطيع أن نقول ولكن : ما قيمة العقليات المبتكرة ، والأفكار التجديدية إذا كنا لا نزال فى حاجة إلى من يضع أيدينا على عمل نمتهنه ، أو حرفة نصطنعها ؟

إننا لا نكون خليقين بالحياة العالية التى نتمنى أن نحياها إلا إذا سابقنا غيرنا من الجاليات القائمة بيننا فيما تبتكر لنفسها من أعمال . فقد شهدنا أفرادها يقتحمون فى بلادنا ميادين ابتكروا كثيرا منها دون أن يقولوا لنا أين مكان المهن ، وأين مجالى الأعمال ، ودون أن يطلبوا إلى أحد أن يضع أيديهم على ما يصنعون ! !

وسيقول المترفون : أيجوز فى نظركم أن يصطنع الشباب المثقف أعمالا لا تليق بمكانته العلمية ، أو يزاول مهنة لا تشرف مقامه الثقافى ؟

ونحن بدورنا نستطيع أن نقول : منذ متى جعلتم التعليم وسيلة قاصرة على التكسب ؟ لماذا لا نتعلم للعلم نفسه ؟ ونواظب على مدارسنا لننتهى منها إلى ثقافة عالية نرفع بها قيمتنا الخاصة بنا ، ثم ننسل إلى خضم الحياة فنزاحم فيه بمواهب مصقولة ، وثقافة تؤهلنا ، وتوسع آفاقنا فيما نمتهن ، دون أن تغرينا بالأجواء الحالمة فوق كراسى الوظائف ، ومكاتبها ؟

إن رجال الأعمال فى أوروبا من الميكانيكيين والكيمائيين ، وأصحاب الورش الصغيرة ، والنساجين ، والخياطين والنقاشين ليسوا من الطبقات الجاهلة أو غير المثقفة . . لأن أكثرهم يحمل أرقى الشهادات ، ولا يستنكف أن يزاول أى مهنة يصادفها ، وكثيرا ما يستعمل ثقافته وملكته فى الفهم لفائدة ما يمتهن . . فإذا الورشة تتطور إلى مصنع ، والخياطة إلى معمل ، ومتجر ، والميكانيكية إلى معدات ثقيلة . تنتج وتصدر ، والنقاشة إلى فن يتسامى وتعلو شهرته .

ولو ظلت آمالهم منوطة بشهاداتهم لباتوا يتسكعون على أبواب الوظائف ، أو يلاحقون السواح كما نلاحق الحجاج مستدرين مروءتهم ولأمسوا حيث كانوا مثل ما نمسى اليوم ، ولما سمعنا بأسماء المخترعين منهم ، والمبتكرين ، والباحثين فى أحدث النظريات ، ولما تمتعنا بما نتمتع به اليوم من وسائل أنتجتها قرائحهم ، ومستحدثات أتقنتها أيديهم ! !

فإذا سادت هذه الروح بين أوساطنا ، واستطعنا أن نبث فى فتياننا وشبابنا فكرة العمل الحر ، فإن بلادنا ستحظى بالمنتجين من أبنائها الغيورين

على مصالحها وسمعتها ، وعندئذ سنقوى على التبريز بين الجاليات التى زاحمت على موارد الرزق عندنا ، وسنستطيع أن نتولى مصالحنا بأيدينا ولا نتيح الفرصة لغيرنا ، ونبقى كما نحن اليوم ، لا هم لنا إلا التوظف أو تطويفة الحجاج .

إن مدارسنا مطردة النمو ، مستمرة فى الانتشار ، وإن عدد المتخرجين بشهاداتهم العالية منها يتزايد كلما مرت السنون . فإذا ظل أمرنا على هذا الحال ، وظلت فكرة التوظف أمنية كل شاب فى مدارسنا كما نلاحظ اليوم . . فإن النتيجة المحتومة أن نتكتل عند أبواب الوظائف ، ونتزاحم على عتباتها . وسنجد فى نهاية الأمر أن دوائر الحكومة لا تستطيع أن تستوعب هذا العدد الذى يتضخم كلما مرت سنة . . وعندئذ سنعانى ما لا يطاق ، وسنقاسى من زيادة العرض عن الطلب هوانا ورخصا لا يقبله حر مثقف .

تعالوا نلغى هذه الروح التى تسود طلابنا فى المدارس ، والتى تصور لهم حياة الوظيفة لماعة مشرقة ، ونحاول أن نبث فيهم فى سن مبكرة أن الحياة أوسع من أن تناط بكرسى ومكتب ، وأن فى آفاقها من أنواع المجازفة وألوان الأعمال التى يبتكرها الشاب المجد لنفسه ما يغرى بالاقتحام ، ويفضى إلى الجاه والغنى .

ولا تنسوا إلى جانب ذلك أن صناعتنا فى تطويف الحجاج مهنة أكل عليها الدهر وشرب ، وأنها كانت عزيزة المنال رفيعة الجانب يوم كان

الحجاج يقدسون ما يمنحهم المطوف من بركات ، ويوم كان آباؤنا من المطوفين يشعرون بمعانى هذه البركة فى نفوسهم . . أما اليوم وقد تغيرت النظرة إلى حقائق الحياة وكادت تلغى البركة بمعانيها القديمة من قواميس الحياة ، وحل محل المطوفين القدامى شباب عادوا إلينا من كلياتهم فى الجامعة يحملون أفكاراً جديدة لا تمت إلى ما تعود أسلافنا بسبب ، فإن خدمة الحجاج بشكلها وتقاليدها الحاضرة سوف لا تصلح لأن يمتهنها جيلنا الجديد إلا إذا نقضت من أساسها ، وبنيت فى نظام يتفق مع ما تبنى عليه الحياة اليوم .

فإلى أن يقتنع المسئولون عنها بضرورة تجديدها يتعين على نشئنا الجديد أن ينساها ولو إلى حين ، ليشق طريقه فى الحياة بين المجازفين من أبناء الجاليات الطارئة ، وألا ينسى أنه أحق بهذه المجازفة من كل طارىء .

دعونا يا قوم من تعلات لا تقدمنا إلى الأمام خطوة ، وتعالوا نعتمد على سواعدنا فى الحياة ، وننسى حياة التواكل فى المكتب أو بين الحجاج ونمضى فيما مضى فيه معاصرونا من أمم الأرض .

هلموا بنا . .

ودعونا . . نمش ! !

ما أعجلك يا رجل

دعونا نمش فى نشاط وقوة ، فقد انبلج الصبح ، وأوشكت الشمس أن تغمرنا من الحدود إلى الحدود ، وتكوى مضاجع المتراخين منا .

كنت فى نقاش لى من يومين مع بعض أصحابى تجاه ذكر الناهضين من أمم الحياة ، وطفقنا نقارن بين تواكلنا ونشاطهم حتى استطرد الحديث بنا إلى ذوى العاهات والعاجزين .

إنهم هناك لايعترفون للعاجزين بعجزهم ، ولا للناقصين والمكسورين بما نالهم . لا لأن لكل علة عندهم علاجا فقط . . بل لأن لكل ناقص لديهم محاولة يستطيع أن يعوض بها ما ناله من نقص ! !

إن الأعمى لديهم لا يعدم وسيلة للتعليم ، والتعليم الكافى . . فلديهم مدارس خاصة بالعميان تلقنهم كثيراً مما يتلقى المبصرون من فنون وعلوم ، علاوة على كونهم قد استحدثوا لهم طريقة يكتبون بها ، ويقرأون بحروف بارزة ، فلا يفوت الأعمى أكثر ما يناله المبصر . بل إن كثيراً من العميان ظفروا من النبوغ والشهرة بما يحسدهم عليه المبصرون .

واحتالوا للصم والبكم فاختاروا لهم أساليب يتلقنون بها معانى الحروف،ويفهمون الكلمات والجمل،فتمت لهم القراءة المستقيمة ،أو ما يشبه المستقيمة . حتى إذا انتهوا بهم إلى الحد الذى استطاعوا أن ينتهوا بهم إليه

نقلوهم إلى صناعة تتفق مع استعدادهم ، ولا تبخل عليهم بالكسب الوفير الذى يغنيهم ، ويسمو بهم عن أن يكونوا عالة على ذويهم أو أقاربهم .

وفعلوا مثل هـذا فى الأبتر والأقطع والأعرج ، فساعدوا كل نوع بمـا يتفق وعلته ، واخترعوا لكل ذى عاهة ما يصلحه ويعينه على مسايرة الناس فى الحياة ويقويه على العمل المنتج فى كثير من ميادين الربح .

فمـاذا فعلنا لأصحاب العاهات عندنا ؟ ؟ ماذا فعلنا للأعمى والأعرج والأبتر والأقطع والأصم والأبكم ؟ هل تبرع أحد أغنيائنا فانتدب من يدرس الطرق المتبعة فى العالم المتمدن لمساعدة سائر المنكوبين بعاهاتهم ، وشرع ينشىء على حسابه الخاص ، أو حساب زملائه من المحسنين بيوتا تأوى هـذه الطوائف وتعلمهم وتدربهم على الأعمال التى تغنيهم عن استجداء الناس ؟

إن أقصى ما نفعله للأعمى أن نحاول تحفيظه بعض آيات القرآن ، وندربه على استعمالها كأداة للتكسب فى أسلوب لا يتفق مع جلال القرآن، وطريق لا تليق برجل يريد أن يحترم نفسه بين معارفه ولداته .

أما الأعرج ،وأما الأقطع والأبتر ،وأما الأصم والأبكم ،فقد تركناهم جميعا لتصاريف الأيام ، توجههم أحداثها حيثما شاءت وكيف شاءت .

حرام علينا أن نترك ضعافنا لأحداث الأيام تصرفهم فيما تشاء،ونراهم يألمون لحرمانهم من الحركة النافعـة فى الحياة فلا نصيخ لآلامهم ولا يبدو علينا أى أثر يدل على عنايتنا بشأنهم كإخوان وشركاء لنا فىهذا الوطن.

إننا نفخر بكوننا مسلمين ، ولكن جمودنا فى مثل هذه المواقف لا يعطى عنا فكرة طيبة إذا قيس بدأب غير المسلمين على عون الضعفاء من أمثال هؤلاء وحرصهم على مساعدتهم وتشجيعهم .

إن المتقدمين فى جميع العالم المتمدين يشعرون بأن أصحاب العاهات لديهم أعضاء فى مجموع الوطن ، وهم من أجل هذا لا يسمحون لهذه الأعضاء أن تظل مشلولة لا يستفاد منها لصالح البلاد ، وإنهم إلى جانب هذا يرون أن العناية بكل ضعيف عندهم إنسانية يسمو إليها كل مهذب ، دقيق الإحساس ـ فماذا نقول فى شأننا ؟

أنقول إننا غير تقدميين ، وإننا من أجل هذا لا نبالى لأوطاننا أفقدت هذه الأعضاء المشلولة أم لم تفقدها ؟

أم نقول إن إنسانيتنا لم ترتفع بعد إلى الدرجة التى يجب أن يرتفع إليها كل حساس مهذب ؟

إننا نجل أنفسنا عن كل هذا . . لأننا نعلم أن وطنيتنا لا تقل عن وطنياتهم ، وأن شعورنا بإنسانيتنا لا يقل بحال عن شعورهم ولكن وعينا العام لم يستوف إلى اليوم نجحه الكامل .

كنت قبل اليوم أمر فى طريقى بأحد العميان وقد اتخذ له ما يشبه الدكانة الصغيرة ، جمع إليها أنواعا من المسليات ، فيها الحمص ، واللوز ، والفستق ، والفشار ، وأنواعا أخرى مثلها . . فكان يتسلم نقود الشارين ويغرف بيده فى الميزان من الصنف المطلوب الذى يعرف مكانه لطول ما تمرن ، ثم يرفع ميزانه فيجيد الوزن كما يجيد الحساب ، وقد قيل لى إنه

يربح من دكانه مبالغ طيبة ينفق منها بسعة ، فكنت أكبر فيه هذه الحيوية التى أبت عليه أن يستسلم للضعف الذى يستسلم له كثير من أصحاب العاهات وذويهم وأقربائهم .

وكنت أعرف رجلا آخر يسلق البليلة ، واللوبيا ، ويجعلهما فى إنائين إلى جانب الخل وبعض المواد الحريفة. التى تروج تلك الأصناف بين مشتريها من الأطفال ، وكنت لا أمر به حتى أجد الزحام حوله من الصبية المتكالبين على بضاعته . وقد علمت فيما بعد أنه حاذق فيما يصنعه حذقه فى عد الدراهم وفرزها ، وأن ربحه مما يبيع على ضآلته لا يقل عن ربح حاذق من المبصرين .

هذه حيوية لا غبار عليها . وهى وإن كانت محاولة ضئيلة بنسبة محاولات أصحاب العاهات عندهم ، ولكنها على عمومها إذا قيست بإهمالنا الفاضح لبقية أصحاب العاهات منا عدت مكرمة تستحق التقدير .

دعونا نتوسع فى إصلاح ما أفسدته الأمراض ، ونتابع غيرنا فنهيء من هذه الأعضاء المشلولة شيئا نافعا فى حقل الوطن ، وبذلك لا نحسن إلى بلادنا فقط ، بل نحسن بجانب ذلك إلى معنوية هؤلاء المرضى ونبث فيهم من الروح المعنوية ما يعينهم فى حياتهم ويساعدهم .

كما نحسن بذلك إلى سمعتنا كأمة يقظة فى نظر الأجنبى الذى يرتاد بلادنا ، ويتلمس فى جوانبها مظاهر الحياة الحية ودلائل الرقى .

كما تثبت بذلك رقة أحاسيسنا ، وشعورنا الرفيع بمعانى الإنسانية . بما فى الإنسانية من كرم وعطف وحب للخير .

ولا تكلفنا العناية بهؤلاء المرضى شيئا مستحيلا ، فالمعروف أن الأبكم لا يعجزه العمل فى أى حقل من حقول الحياة يستطيع الاستغناء فيه عن الكلام فجميع الأعمال اليدوية لا يعجزه إذا تدرب عليها أن يبرز فيها . . بل إننى لأذكر أنى كنت أعرف رجلا من البكم يرتاد السوق العامة للخضار والفاكهة فيشترى ما يلزمه لدكانه الخاص دون أن يجرؤ أحد على خداعه فى أسعارها . . فقد كان يرقب حركات شفاه المساومين ويعرف منها كل ماله علاقة بالأسعار ، وكان لا يعجزه إذا انتهى إلى دكانه أن يتفاهم مع عموم زبائنه عن طريق الإشارة ، وكانت شهرته بالحذق ، وميله إلى المرح يساعدان على إقبال الزبون عليه ويعينان على رواج بضاعته أكثر من جيرانه .

ولا يبعد شأن الأعمى كثيرا عن شأن الأبكم ، فإن شعوره بنقصه عن المبصرين يحفزه للعمل والعمل المنتج فى كثير من ميادين الحياة .

وقفت يوما بسيارتى فى أحد الشوارع فإذا مناد خلفها ينادى ياصاحب الشفر ٥٤ . . خذنى معك ، فالتفت فإذا أعمى يستأذن فى الركوب فعجبت لمعرفته موديل السيارة دون أن يراها ، فسألته عن ذلك ، فقال إنى تعرفت بالتمرين على جميع موديلات السيارات وأنواعها ، وإذا صادفنى اليوم سيارة واقفة فإنى لا أخطىء نوعها ، وموديلها . عندما ألمسها ، فهل تستغرب هذا ؟ ؟

قلت ولكن قصتى أعجب من هذا فإننى بالرغم من كونى مبصرا فإنى لا أميز أى نوع من السيارات ، ولا أعرف موديله ، ولو أن سيارتى ضاعت بين غيرها من موديلها أو غير موديلها . فإنه سيتعذر على معرفتها فهل تستغرب هذا ؟ فما ملك أن ضحك حتى وقع على الأرض ! !

هذا مبلغ استعداد العميان بعد البكم فى الحياة . وإذا علمنا أن محنة النوعين أبلغ من محنة غيرهما من أصحاب العاهات ظهر لنا أن معاناتنا مع غيرهم سوف لا ترهقنا نصبا كبيرا ولا تكلفنا عناء جسيما

إذا كنا عالجنا قبل اليوم شئون هؤلاء المرضى بأساليب بدائية وفى نطاق ضئيل محدود . فهل يجوز لنا بعد اليوم ونحن فى إبان صحوة جديدة أن ننسى واجبنا نحوهم ، ونترك بلادنا تفقد فى أشخاصهم الضعيفة أفرادا هى فى حاجة إلى أثرهم فى الحياة ؟ ؟

دعونا نتابع غيرنا من أمم الأرض الناهضة فننتدب منا من يستقصى أحدث ما وصل إليه ابتكار المتمدنين فى مساعدة هؤلاء لنقلده فى بلادنا . وإذا كنا قد عنينا إلى اليوم بانتداب المتخصصين فى شتى نواحى العلوم والفنون فما يمنعنا أن نضيف إليهم من يتخصص فى مثل هذه الناحية لنضيف إلى ميادينا الجديدة التى اعتزمنا فتحها ميدانا له قيمته فى الحياة ؟

أيقول بعد هذا متحذلق إننا لم ننته بعد من شؤون الأصحاء فما أعجلك أيها الرجل ؟

إنها حذلقة لا يقرها عدل ، ولا منطق ، لأننا لا يجب أن نجرؤ على تصنيف النـاس ، ولا نقدمهم إلى الحياة إلا صنفا بعـد آخر ، فالناس فى نظر العدل سواسية ، وإذا وجب أن نخطو فلنبدأ بضعفائنا ،أو يشملنا السير بجميع أصنافنا .

وإنها حذلقة لا يقرها منطق ، لأننا لا يجب أن نستبعد نبوغ أصحاب العاهات بصورة تزيد نسبتها عما عرف بين غيرهم من الأصحاء .

إننا نهيب بأصحاب الغيرة من المتمولين وأصحاب اليقظة من المثقفين ، وأصحاب الاختصاص من المسؤولين أن يعيروا ضعفاءنا من هـذا النوع لفتـة صادقة ينقـذونهم بها مما امتحنوا به ، ويبثون بها فى أرواحهم من المعنوية ، وفى نفوسهم من الثقة ما يساعد على بروزهم بيننا .

نحن لا ننـكر أننا فيما نهضنا لا نزال عنـد الأبواب كما لا ننـكر أن بلادنا التى أشقاها التأخر من ألف سـنة لا تسـتطيع أن تقضى أوطارها طفرة . . . نحن نعلم هذا ، ولـكننا نعلم أننا أشد ما نكون حاجة فى خطوتنا هذه إلى النصيحة والتذكير فسيروا بنا . . سيروا بنا خفضا ورفعا . . سيروا بنا عنفاً وشداً .

لنمش فى نشاط ومغامرة . . فقد دللت الأمم المغامرة على أنها حرية بالوقوف أمام الشمس ، وأنها جديرة بالحياة الممتازة التى تحياها .

إن فتانا ولده أبواه فى بيت العائلة فنشأ فيه ، وألفه ، وألف الزقاق والحارة ، وربما ألف الحضرمى بائع الفول عند رأس الزقاق ، والقهوة التى يجلس إليها أقرباؤه فى الحارة . . فإذا صادفته مناسبة طلب إليه فيها أن يغادر بيته إلى مقر وظيفته فى القرية النائية أو المدينة البعيدة عجز عن التلبية . لأنه ألف بيته ، وألف أبويه ، وألف الزقاق والحارة اللتين تربى فيهما ، وربما أضاع عجزه عليه فرصة لا يستطيع أن يعوضها .

فيم كل ذلك ؟

لأننا لم نألف المغامرة ، ولم نتعودها ، ولأن المربين فى البيت والمدرسة عندنا لم يبثوا إلى اليوم فى أرواحنا حب المغامرة وروح الفداء .

أما الأمم المتمدنة فقد درج أبناؤها على المغامرة والجرأة ، والتلذذ بشظف العيش فى الاغتراب .

ويكمل الفتى عندنا دراسته فيتعين انتدابه إلى خارج القطر ليلتحق بالكلية التى تعين التحاقه بها . . فيشعر بالوطأة القاسية ، ويعانى أبواه من بعده آلاما لا يصبر عليها إلا جلد .

ففيم كل هذا ؟ ؟

لا شيء إلا أننا تعودنا الركون إلى أمهاتنا فى البيت ، ومغانينا فى (البرحة) ، ولم نترب على حب المخاطرة ، واقتحام الصعاب .

قلت لوالدة فارقها ابنها فى رحلة لإتمام التعليم . . وقد شكت إلى آلامها من البعد ! قلت لها : ألا تعلمين أن عبد الله بن الزبير دخل على أمه يستأذنها فى أن يجول جولته الأخيرة فى الحرب ، وألا يعود إليها من غد إلا مقتولا فأذنت له وشجعته ؟

قالت : أشجعته ليحارب حتى يقتل ؟ ؟

قلت : نعم . . إنها شجعته ليحارب حتى يقتل ! !

قالت : إنها مجنونة ! !

قلت : إنها الحياة قد فرغت عند ما تسمين ذات النطاقين مجنونة . . ولكنها لم تفهم ! !

فقلت : وهل تعلمين أن عبد الله بن الزبير قال لأمه وهو يودعها الوداع الأخير : إننى أخاف يا أماه أن يمثلوا بى بعد أن يقتلونى. فقالت له: إن الشاة لا تبالى بسلخها إذا ذبحت ، فامض إلى طلبك لتعيش إن عشت كريما ، أو تموت إن مت كريماً .

قلت لها هذا فقالت : إنها مجنونة ، وإنك مجنون عند ما تصدق هذا .

وهكذا هزلت الحياة حتى بتنا نسمى البواسل المخاطرات مجانين !

ذلك لأن البسالة التى من هذا النوع لم نتمرن عليها ، ولم تتعود قلوبنا هذا الضرب من الفدائية الهائلة . . فإلى أن تمتحننا الحياة بهذا فإننا سنظل رهائن لطراوتنا . وعند ما يحل اليوم الذى نصدق العزم فيه على الوثوب ومجاراة غيرنا من الناهضين — وهو قريب إن شاء الله — فإننا سنجد أنفسنا أمام أمور واقعة تهيئنا للشجاعة ، وترغمنا على أخطر المغامرات .

ما رسمت الأمريكتان على خارطة الدنيا . . إلا نتيجة لمغامرة طائفة من الناس محدودة العدد . . خاطروا بأرواحهم ، وأبوا إلا أن يجوسوا غمار المحيطات التى لم يجرؤ عليها قبلهم بشر . . . وعند ما صادفتهم أهوال لا تحتملها طاقة إنسان فى الحياة أبوا أن يعودوا حتى يكلل الظفر هاماتهم ، أو تبتلع الأمواج أجسادهم لقمة سائغة ! !

ولقد كلل الظفر هاماتهم . . فاستطاعوا أن يضيفوا إلى مجموعة الأمم على وجه الأرض شعباً له قيمته التى تميزه اليوم على جميع شعوب الأرض قاطبة ثراء وقوة ونفوذا منقطع النظير ! !

فلو تقاعس الرواد الأولون وخافوا الاغتراب الذى نخافه ، ولم يجسروا على المغامرة التى خاطروا بها . . لما عرف العالم اليوم شيئا عن الأمريكتين العظيمتين .

وحديث المغامرين بعد هؤلاء الرواد وقبلهم أطول من أن نستقصى أخبارهم فيه وجميعها أخبار تدل على بطولة الفدائيين الأفذاذ ، ومقدار جلدهم على تحمل المصاعب القاسية فى سبيل آمالهم البعيدة ومراميهم ! !

هذه أخبار الرحالين العرب يكتظ بها تاريخ الإسلام المجيد . .تكلفوا من المشاق ما ينوء به أشد الرجال شكيمة وأوفرهم بأسا . . كانت أقطار الأرض غير مدروسة بالشكل الواضح أمامنا اليوم وكانت مواصلاتهم لا تعرف الطيارة التى تسابق النسور ، والسيارة التى تنهب المسافات ، والبواخر التى تجوب المحيطات . . ومع هذا فقد أبت عليهم مغامراتهم إلا أن يضربوا فى أبعاد الأرض ، ولا يستثنون منها معلوما ، أو مجهولا، ولا يقف دونهم عواقب مهما جل هولها واشتدت صعوبتها .

وتبدو فدائيتهم بارزة إذا علمنا أن أقطار الأرض لم تكن كشأنها اليوم تشيع فيها لغة عالمية أو ما يشبه العالمية ، فالرحالة اليوم يستطيع أن يستخدم لغة واحدة أو لغتين من لغات العالم المشهورة فى أكثر الأقطار التى يزورها ، أما رحالة الأمس فلا يملك مثل هذه اللغة ليستخدمها فيما يطوف به فقد تباعدت اللغات حتى انفرد كل مصر بما يتكلم .

ولقد أبعد الرحالون فيما طافوا . فتغيبوا السنوات الطوال حتى إن بعضهم غادر موطنه فى سن الفتوة ولم يعد إليه إلا هرما يجر خلفه من أولاده فتيانا وفتيات ! !

قطعوا المسافات الشاسعة إلى آخر حدود الصين ، وأواسط بلاد التبت ، ومخروا البحار فى سفن شراعية مهلهلة الأوصال حتى انتهوا إلى أكثر جزر اليابان والفلبين بعد جاوه وسومطره . . وقيل إن بعضهم انتهى إلى أول شاطىء تتصل به أمريكا اليوم .

وتوغلوا فى أفريقيا . . شواطئها وصحاريها وغاباتها المخيفة وبحيراتها المهولة ، ومضـوا فى جميع القارات حتى عرفوا كثيرا مما كان مجهولا يومها من بلاد أوربا .

ولم تكن عدتهم فى هـــذا إلا بغالا أو جمالا تحمل أثقالهم إلى حيث تستطيع فإذا بدا لهم من ضعفها ما يخشون واصلوا سيرهم على الأقدام، فصعدوا فى الجبال الشاهقة ، وخوضوا فى المهاد المخيفة .

وقد قابل أكثرهم فى رحلاتهم ، قبائل لم تستأنس بعد . . منهم آكلو لحوم البشر ، ومنهم قطاع الطرق والقراصنة،فلم تمنعهم هذه الأخطار عن مواصلة سيرهم .

ولقد تعرض بعضهم لشكوك المستبدين وريبتهم ، كما تعرض بعضهم للسجون والجلد ، وكما تعرض بعضهم للقتل والاغتيال ، فلم تحل كل هذه دون بغيتهم ، ولم تفل من نشاطهم أوعزيمتهم .

وبذلك أسدوا إلينا معارف لا تقاس بها معارف ، فقـد كانت نواة طيبة لكل ما نعرفه اليوم من علوم الجغرافيا ، وكانت بابا دخلت منه أوروبا إلى كثير مما وعته مجلداتهم عن أمم الأرض وتواريخها .

فلو جبل هؤلاء على ما جبلنا عليه من الطراوة ، واستسلمنا له من حب القرار ، وتحاشى الصعاب ، لظلوا فى بيوتهم لم يغادروها ، ولما أنتجوا لتاريخ البشرية ما أنتجوه من معلومات .

وانتقلت هـذه البسالة الممتازة من أجدادنا الأبطال إلى أمثالهم من أمم الغرب اليوم . . فنحن لا نزال نسمع من أخبار المغامرين ما يثير الدهشة ويدعو إلى العجب .

لم يتركوا صحراء قاحلة ، ولا بيداء شاسعة ، ولا مجاهل مغمورة حتى قطعوا فيافيها وطرقوا مسالكها لا يمنعهم جوع ولا عطش ولا تحول دونهم صعوبات مهما جل شأنها .

ومن الغريب أن أكثرهم ينتمون إلى أسر مترفة لم تألف قسوة الحياة، وشظف العيش ، ولـكنها فى نظرهم هواية يتلذذون فيها بما يقاسون من متاعب ، وما يصادفونه من نصب ولا مانع لديهم من أن يركبوا إلى غايتهم الدواب الخشنة والمطايا المتعبة ، وأن يواجهوا القر والحر ، ويتعرضوا للحيوانات الكاسرة ، والغابات الموحشة ، وللقبائل المتوحشة .

أوغل بعضهم فى أفريقيا ، واخترق صحاريها التى لم تطرقها قدم ، وقابل من أهوالها مالا يتحمله جلد ، وخرجوا من ذلك بفضول مسهبة أفادت قومهم . وفتحت عيون حكوماتهم على حقائق كان يجهلها حتى سكان القارة أنفسهم ! !

وأوغل بعضهم فى أستراليا ، والهند ، والصين ، فانتهوا إلى آفاق لا يتصورها خيال ، واكتشفوا من طبائع الأرض والجبال والأنهار فيها ما لم تتيسر معرفته للسكان أنفسهم ، وبذلك خدموا بلادهم خدمات جليلة

القدر ، عظيمة النفع ، ومشى رائدوهم فى بلاد العرب فلم يتركوا شبرا إلا ذرعوه ، ولا صحراء إلا جابوها ، ولا جبلا إلا صعدوه ، ولا مغارة إلا كشفوها ، وانتهوا من تلك إلى بحوث لم يكتبها عربى من أبناء اليوم .

ومشى بعضهم إلى المناطق الثلجية التى لا يقوى على احتمال صقيعها إنسان فارتادوها ، ودرسوا طبائعها وعادات أهلها ، واتصلوا إلى ما يقرب من القطب الشمالى فمسحوا أراضيه ، وكتبوا عنها مالا يخطر على عقل بشر . . وهم لا يزالون يعقدون العزم على التوغل فى القطب الجنوبى واكتشاف ما يهمهم اكتشافه فى مناطقه السحيقة .

وتعدت جرأتهم إلى قياع البحار، وأعماق المحيطات ، وبطون الأراضى وأجواف البراكين الباردة ! !

وإذا أردت أن تعجب فاعجب لهذه المغامرات الجريئة القاسية التى لم تقتصر على الرجال وحدهم ، بل شارك فى كثير منها نساء دقيقات الخصور ، رقيقات الأطراف ، سائلات الأعطاف .

إنهن نسين رقتهن ، وضعفهن ، وحاجتهن إلى حماية غيرهن ، وخاطرن فى بسالة منقطعة النظير نحو غاياتهن بقلوب لا تعرف الخوف .

أيليق بنا ـ ونحن نسمع فى كل مناسبة من أخبار هؤلاء المغامرين والمغامرات ما يدعو إلى الاستهانة بالأخطار ـ أن نجمد فى بيوتنا على

ما تعودنا ، وأن ترتجف أفئدتنا فرقا كلما دعانا داع إلى خطوة جديدة نخطوها نائين عن مرابعنا ، أو حركة جريئة نغامر فيها بعيدين عن أهلينا؟

نحن فى حاجة إلى أن نقتبس من أعدائنا هؤلاء بعض أخلاقهم إذا أردنا أن نواجههم فى الحياة وأن نتعلم من مزاياهم الطيبة . . . والطيبة فقط ما يؤهلنا للوقوف أمامهم موقف الند من الند . فإنهم لم يخلقوا من طينة غير التى خلقنا منها، ولم يتزودوا فى تركيبهم الجسمانى بما لم نتزود به.

فإلى الأمام . . إلى الأمام .

ودعونا نمشى ! !

أعدوا عدتهم للرحلة إلى القمر

عقد أحد الأمريكيين العزم على ارتياد أصقاع الإسكيمو ليدرس عاداتهم ، ويبحث عن طريق بينهم إلى القطب الشمالى فذكروا له أن بلادهم يغطيها الجليد فى معظم فصول السنة ، وأن الرجل المتحضر لا يجد فى تلك الأصقاع ما يأكله فيفقد حياته جوعا وبردا بين أقوام يبغضون الغريب ولا يتورعون عن الإجهاز عليه . . فلم تثنه كل هذه الأوصاف المفزعة عما صمم ، وأبى إلا أن يمضى فى برنامجه إلى الحد الذى رسمه .

وأسعفه الحظ فنجا لا بأعجوبة واحدة بل بجملة أعاجيب كاد أن يقضى على حياته فى خلالها ، وبذلك استطاع أن يقطع المسافات الشاسعة فى أراضيهم فى مدى شهور طويلة قاسى فى أثنائها من الشدائد ما لا يطاق ، وعاد من رحلته مزودا بأعجب ما كتبه الباحثون عن حياة الشعوب المجهولة ، وأسلوب حياتهم . . وقد نشرت بحوثه فى مجلات عالمية راقية ، وعنيت بترجمتها إلى لغات شتى أمهات الصحف فى العالم .

صمد الرجل فى رحلته لأهوال عظيمة ، وفرغ زاده قبل أن ينتهى إلى ربع المسافة التى تضمنها برنامجه فلم يثبط الجوع همته فيما عزم ، وفاجأته شهور الشتاء فلم يجد فى أصقاعهم كوخا يتقى به غائلة البرد أو يتوارى خلفه من عواصف الثلج الثائرة فى صورة لا تعرف الاستقرار .

وكان المفروض أن يقنع بما ناله من أهوال ، ويرحم شيخوخته من عذاب الجوع ، وسياط العواصف الثلجية التى ألهبت جسمه ولم يبلغ ربع الطريق . . فيستأنف عودته . ولكنها عزائم قدت من الحديد لا تبالى بالأخطار مهما بلغ شأوها ولا يفل حدتها الخوف مهما تجسمت مصائبه .

صمد الرجل فيما مضى واستطاع أن يغرى رجلا من الإسكيمو ليصحبه فى رحلته فعلمه الرجل كيف ينحت من تلال الثلوج المتراكمة كهفا يتقى به غائلة العواصف عندما تتفاقم ثورتها وكيف يحفر بين الكتل الثلجية خندقا يأوى إليه إذا أعوزه النوم بين جدر لا يقوى على مسها لشدة بردها فإذا يبست أطرافه من شدة الصقيع ، وشلت عضلاته عن الحركة . . حاولها بالفرك الشديد ، والتدليك القاسى حتى يعود الدم إلى حركته فى الشرايين بعد أن جمد من هول البرد .

ولما اشتد به الجوع ورأى الإسكيمى يصطاد الفقمة من تحت أطباق الثلوج ويلتهمها حية تسيل دماؤها على لحييه تقزز من منظره البشع . ثم ما لبث أن جاراه ليسد جوعته بلحمها العفن . وتعددت المجاراة حتى ألف الفقمة ، ولذت له فيها النكهة التى كان يتقزز منها .

وقد قضى على هذا المنوال القاسى أكثر من عام ونصف عام . ولم يعد إلى حيث بدأ حتى كان قد أعد بحوثه فى فصول تهالك أرباب المجلات العلمية على شرائها بأثمان كان لا يحلم بعشر معشارها .

ولا تقل مغامرة غيره عن مخاطرته . . فقد خاطر عالم روسى بنفسه عندما شد رحاله إلى إحدى المناطق البركانية فى شمال بلاد الروس يبحث حتى اهتدى إلى بركان خامد انطفأت جذوته من عهد طويل ، وتركت أعماقه تغور أميالا فى جوف الأرض فقر عزمه على متابعة الأغوار إلى نهايتها ، ودراسة بطن الأرض تحت هذه الأطباق .

وكان يعلم أن جوف الغور تحت أطباق الأرض لا يصلح للتنفس ولكن ذلك لم يثنه عما عزم فقد أعد لنفسه جهازا خاصا يزوده بالهواء النقى الصالح للتنفس إلى مدة افترضها كافية لرحلته تحت الأرض .

مضى الرجل فيما عزم واستأجر من رجال القبائل الأشداء نفرا يدلونه فى جوف البركان العميق بعد أن اتفق معهم على ألا يغادروا فوهة البركان مدة غيابه فى جوف الأرض وأن يراقبوا حركة الحبال التى تصله بهم لينشلوه عند أول إشارة منه .

وقد تم له ما أراد ، واستطاع أن يتصل بأعمق أغوار البركان ، وأن يمضى فى شقوق الأرض إلى مسافات ممكنة درس منها ما عن له أن يدرس ، واطلع فيها على غرائب استنتج منها نتائج ظلت إلى زمن طويل محلا لعناية العلماء المعنيين بطبقات الأرض . . . وساومه بعض الهواة من الأثرياء فى شراء مذكراته عن هذه الرحلة فأبى عليه حتى أغراه بالثمن الباهظ الذى أغناه فيما بقى من حياته .

وغامر غير هؤلاء فأعلن مغامر زوجه بأنه سيغادرها إلى رحلة طويلة في أعماق المحيط ، يدرس فيها الحيوانات المائية ، وأعد لذلك أجهزته التي جرب صلاحيتها لمساعدته على البقاء أطول مدة تحت المياه فى أبعد غور من المحيط . . متعرضا لحيواناته الهائلة ، وأسماكه المفترسة فلذ لزوجه أن تشاركه هذه المتعة بين براثن الأخطار ،فأبى عليها أن تزج بجسمها النحيل فيما لايحتمله إلا قوى شديد البنية ، وحاولها ذووها لتوفر طاقتها المحدودة، فأبت إلا أن تجرب هـــذه المجازفة ، ونذرت إلا أن تحاولها خدمة للعلم ومساهمة فيه ! !

وكذلك مضى الزوجان إلى حيث استضافهما الماء فى الأغوار السحيقة أياما طويلة . . كانا فى خلالها يصعدان إلى سطح الماء كلما أرهقهما العمل الدائب فى جوفه .

وقد قطعا فى رحلتهما أغوارا واسعة ، وجبالا شاهقة ، وطاردا من أنواع الحيوانات المفترسة ما عرضهما للموت المحقق مئات المرات ، وشاهدا من عجائب البحر ، وألوان مخلوقاته ما ملأ حقائبهما بأنواع من الصور والرسوم لا حصر لها ، وعند ما عادا إلى مستقرهما كانت مئات الألوف من المعجبين ينتظرون أوبتهما ليحتفلوا بنجاحهما المنقطع النظير ! !

وزاد عدد المجازفين اليوم بزيادة ألوان المخاطرات التى تحتاجها آفاق العلم . . فهذا نفر من الباحثين يأبى إلا أن يكتشف الكواكب ، ويتعرف على ماهياتها معرضا نفسه لجميع الأهوال التى تحول دون مآربه . . ولكنه يأبى أن يقنع إلا بما عزم .

وهـذا نفر أعد عدته للرحلة إلى القمر ، وآخرون يعدونها إلى المريخ فى سبيل نظريات تخيلوها لم تثبت أدلتها القاطعة ولـكن لذتهم فى المجازفة تغريهم بالمستحيلات ، وما فوق المستحيلات ، وتعلمهم التشبث بأول بادرة تخطر لهم عن الحقائق الغامضة والآفاق المجهولة .

وإذا كانت هذه المغالاة فى استقصاء الخواطر الغامضة والاحتمالات البعيدة تعرضهم فى بعض الحالات للفشل فإن الفشل فى رأيهم علم جديد يثبت لهم حقائق كانوا يشكون فى صحتها ، وأنهم إن فشلوا إلى اليوم فى الاتصال بالقمر أو المريخ ، أو بعض الكواكب الغامضة . . فإن دأبهم على المجازفات طالما أفادهم فى مواطن أخرى غيرها تنفع فيها المجازفة ، وتنتهى بهم إلى نتائج ناجحة .

فهـذا الطيران فى أجواز الفضاء على متن سفن بلغت غايتها من الضخامة والقوة ، ووصلت إلى هدفها من الأمان ، لم يكن فى أحد الأيام سوى مجازفة خطرة أقدم عليها شجاع باسل ، وعرض نفسه لتجربتها فى تضحية منقطعة النظير .

وعند ما خطا الطيران خطوته الثانية لم يقدم على اقتحامها إلا نفر جرىء احتسب نفسه لخدمة العلم ، وضحى بنفسه فى سبيل الصالح العام .

وقد تركت الخطوتان الأوليتان فى تجارب الطيران أثرهما دماء تسيل فى كثير من البلاد التى سبقت إلى المجازفات بتجربة الطائرات . ولـكن

منظر الضحايا ما كان ليفت فى عضد المجربين ، أو يحول بينهم وبين مغامراتهم المتواصلة .

فإذا تمتع أحدنا اليوم بمقعد وثير فى طائرة فخمة تشق به عنان السماء فليذكر باحترام أرواح تلك الضحايا التى قدمت نفوسها قربانا لراحته ، والتى قبلت أن تتبرع بأجسادها كمادة تعبد الطريق بها إلى الهدف الذى يسعد البشرية اليوم ، ويوفر لها هناءتها وراحتها .

ولنقل مثل هذا أو أكثر من هذا فى شأن جميع المخترعات التى يتمتع البشر اليوم بفائدتها وينتفعون بمزاياها .

إن جميع هذه الاختراعات لم تكن فى أحد الأيام سوى فكرة تراود رؤوس المتطرفين ، أو المتهورين من رجال البحث والاستقصاء .

كانت فكرة لا يعلم إلا الله كم عانى المتهور فى سبيل تصويرها لتتبلور ، وتأخذ شكلها الذى تخيله ، وتعطى فائدتها المرجوة . ولا تسأل عن مدة التفريخ التى تتبلور فيها أى فكرة من هذه الأفكار ، ولا عن مبلغ ما عاناه أصحابها فى سبيل ذلك فتتكشف لك حقائق مؤلمة تستحق الحزن والرثاء .

كم حورب المخترعون ، وأوذوا فى سبيل أفكارهم ؟ وكم قاسوا من هزء الناس وسخريتهم ؟ وإلى أى حد ثبتوا وهم يبذلون من أموالهم ما يملكون رغم فقر أكثرهم ؟ وما عدد الضحايا التى احتسبت أرواحها فى سبيل ذلك ؟

إنه إحصاء لا يوفيه حصر . . أقدم عليه رجال ضربوا الرقم القياسى فى صبرهم وجلدهم على الأهوال ، وإنه إيثار لا يضاهيه إيثار فى الحياة اضطلع بأعبائه مغامرون لايبالون بالأخطار مهما تفاقم شرها ، وتضاعفت آلامها .

على كواهل هؤلاء الرواد الفدائيين قامت أمجاد الأمم التى تباهى اليوم بمراكزها تحت الشمس ، وعلى أشلاء أجسادهم مشت الكتائب التى حازت النصر لبلادها وبلغت بها غاية الهدف ! !

فهل تسخو اليوم نفوسنا ونحن على غلوة من الفجر الجديد بإيثار بلادنا بأمثال هذه التضحيات التى برز فيها الفدائيون قبلنا، وبذل المغامرون من أنفسهم فى سبيلها ما أسعد أممهم وبلادهم ؟

ما أشد حاجتنا إلى شباب كامل الاستواء ، ناضج المعرفة ، لا يبالى بالصعاب مهما اشتد أوارها ولا يخاف الأهوال مهما تفاقم شرها فى سبيل يسعد بها بلاده .

فإلى الأمام أيها الشباب . . إلى الأمام .

ودعونا نمشى ! !

شجاعة هيأها التقدير السخى

علينا كمجتمع بدأ يشعر بكيانه فى الحياة أن نعرف واجباتنا نحو نشئنا الجديد ، فإذا تمنينا عليه أن يجارى لداته من شباب الأمم الناهضة . فعلينا أن نعرف نوع الالتزامات التى تفرضها تلك الأمم على مجتمعاتها لتدعم بها شبابها ، وألوان التشجيع الذى تشحذ به عزائمه .

هناك بيوت تجارية ترصد فى موازناتها أرقاما عالية لتشجيع العاملين فى حقول تعينها ، وشركات قوية تأخذ على عاتقها مساعدة من خاض ميادينها ، وتكلف صندوقها بما يتطلبه ذلك من نفقات . . . وهناك من كبار الأغنياء من يعلن وقف جزء من أمواله على فكرة يدعو إلى المسابقة فيها . فلا عجب إذا تدافع الشباب فى الميادين النافعة وتسابقوا ! !

فكر عامل فى أحد مصانع الأقفال بفرنسا فى طريقة تحبس المفتاح فى قفله فلا يخرج إلا بعد أن يقفله . . فعرض الأمر على وكيل الشركة ، ومنحه إجازة لمدة أسبوع كامل يبحث فيه الفكرة فى داره أو فى ورشة الشركة ، ووعده إذا نجح بمكافأة تقدر بنصف أرباح الصنف لعام كامل ! ! وقد نجح العامل ، وقرر مجلس إدارة الشركة منحه المكافأة التى وعده بها وكيل الشركة . . فلما تسلمها استطاع أن يؤسس بها محلا صغيرا للأقفال وهو اليوم يربح من بضاعته أضعاف مرتبه الذى كان يتقاضاه من الشركة .

وتقدم شاب إلى بعض المؤسسات الزراعية باقتراح يطلب فيه انتدابه إلى أمريكا الجنوبية لدراسة بعض أعمال التلقيح . فأصدرت المؤسسة موافقتها على انتدابه وظلت تنفق عليه عن سعة نحو سنتين ، وتكفلت بمن يعوله من أهله . ولما عاد مما انتدب له كان قد أعد مذكرات مطولة عن مشاهداته فى الجهة النائية التى سافر إليها . . واشترت الشركة منه مذكراته بثمن غال ! ! أغراه على استئناف رحلته ، وبيع ما يسجله عنها للمؤسسات الزراعية التى تهتم بأبحاثه بأثمان مرتفعة جعلته فى عداد الأغنياء !! بعد أن كان لا يملك ثمن تذكرة الطائرة التى نقلته فى رحلته الأولى .

وتكفلت كثير من المؤسسات الغنية بكثير من الرواد الذين غامروا فى أعماق أفريقيا وعلى شواطئها البعيدة وفى صقيع سيبريا ، ورمال بلاد العرب الملتهبة ، ومجاهل أستراليا ، فقضوا السنوات يجالدون الأهوال ، ويعانون من قسوة الحياة،وقلة الماء ، ومهاجمة الوحوش ما يعانون فى سبيل اكتشافاتهم ! ! ودراساتهم ما عنوا بدراسته من طبائع الأرض ، والحيوان ، والجبال ، ومواطن المعادن والزيوت والثروة المائية التى تخفيها الأعماق .

ساعد المتمولون على كل هذه المعاناة ببذلهم السخى ، وأموالهم التى كانوا ينثرونها من غير حساب تشجيعا للأيدى العاملة ، والشباب المغامر ، وأصحاب الأفكار الجريئة .

وما كان السخاء للسخاء وحده بقدر ما كان وسيلة إلى العمل المنتج الذى يعوض أضعاف الأموال المبذولة ويعود على المشجعين بالأرباح الجزيلة الوافرة .

وإذا أردنا أن ننصف المشجعين . . فعلينا ألا ننسى أن أعمالهم فى التشجيع لا تقتصر على ما يدر عليهم من الأرباح فقط . بل إن كثيرا منها كان يخدم العلم للعلم نفسه . . فهنالك حفريات أثرية ، وجهود أدبية بحتة ، وأعمال إنسانية صرفة ، تجد من يشجع على خدمتها بلا مقابل يعوض خسارتها . . . ومن هذا القبيل جائزة نوبل التى أوصى بها نوبل قبل وفاته لتقدم إلى أقدر رجل أنتج فى عامه إنتاجا مبرزاً له شروطه الخاصة . . وهو لون من التشجيع له نظائر كثيرة فى العالم . ولا غرض له إلا خدمة الإنسانية .

فإذا ألفت المجتمعات هذا البذل السخى الذى يساعد على نماء الأفكار ، وصقل المواهب ، ويغرى بشحذ العزائم ، والمغامرة إلى أبعد آفاق المجهول . فإنها ستظفر بملكات لا تدرى كيف نضج استواؤها ، وكيف تهيأت للعمل المجدى النافع .

حدثنى رجل من السودان قال : « كنت أعمل سنين طويلة كرئيس للخدم فى بيت أحد الإنجليز فى أسمرة ، وكنت ألاحظ أنه ينفق عن سعة ، ولا يعرف قيمة للمال الذى ينفقه . فكان يتبادر إلى ذهنى أنه من ورثة أحد

اللوردات الأغنياء ، وأن ميراثه الضخم يغدق عليه هذا النعيم، حتى علمت من طريق الصدفة أنه نشأ أول ما نشأ فقيرا لا يملك ما يقيم أوده ، وقد أغرم بالتنقلات فى الصحارى ، فشد رحاله إلى الشرق ، وساح فى بعض أطرافه . ثم كتب إلى بعض الجرائد فى بلاده يصف مشاهداته فرحبت بما كتب ، وأرسلت إليه بعض المال الذى يساعده فى مشاهداته .

ثم تسامعت به بعض المؤسسات العلمية فكلفته بالسفر إلى الصحراء الغربية الكبرى ليدرس فى آفاقها ما عن له دراسته فلم يتقاعس لحظة ،وشد رحاله إلى حيث كلف . . وخاطر باجتيازها منفردا لا يصحبه إلا سلاحه الخفيف ، وصندوق جمع إليه ما استطاع من الزاد ، وراحلة اشتراها واستأجر بائعها ليساعده على الرحلة المحفوفة بالأخطار .

وما أن انتهت تقاريره الأولى إلى المؤسسة التى انتدبته حتى وافاه تفويض إلى أحد البنوك يخوله سحب المبالغ التى تلزم لنفقاته دون تحديد . فنشطت عزيمته ، وواصل خطواته ، وأنفق عن سعة على حركاته . . ومع هذا فقد أبى أن يكلف التفويض المفتوح له إلا ما اقتضته ضرورة العمل ! مما جعل المؤسسة ترضى عن تصرفاته ، وتبذل له المكافآت السخية ! !

وتسامعت مؤسسات غيرها بخبرته فى أمريكا ، وبعض بلاد أوربا . . فانهالت عليه التكاليف فى شروط سخية ، وبذل فائض شجعه على مواصلة الحركة . . فهو اليوم لا يقيم فى أسمرة إلا ليعد نفسه لرحلة جديدة فى بلاد

العرب . أو فى أفريقيا ، أو يعبر المحيط الهندى إلى أقاصى الشرق . . ليجوس خلال الآفاق المترامية ! ! فى رحلة تطول أكثر من عام ، ولا تقل بحال عن ثلاثة أشهر .

وأقسم أنى ما رأيت فى حياتى جلدا يكابد الأهوال التى يكابدها هذا الأبيض . فهو يشارك البدو طعامهم الجاف ، ويصبر على مثل ما يصبرون عليه من مواصلة المشى فى مفاوز معطشة ، ثم هو لا يبالى بالقيظ مهما قسا لهيبه ، ولا بالبرد مهما اشتد أواره . . وتراه عند ما تضج إحدى المفازات بأصوات الحيوان المفترس يخف فى نشاط إلى مسدسه ، ثم يتعقب الأصوات حتى يسقط على مصادرها . ولا يعود إلى خيمته إلا بعد أن يصيح برفاقه من البدو المختبئين أن يساعدوه على نقل ما صاده من الحيوان .

قلت إنها شجاعة هيأها التقدير السخى الذى يبذله مواطنوه .

فقال ولهذا فقد أثرى ثراء فاحشا منقطع النظير . وهو اليوم يملك فى بلاده مصانع للفضة تدر عليه أرباحا طائلة . . ولكنه يأبى أن يستخذى لهذا الغنى ! ! ولا تزال إلى اليوم تراه بعد أن اكتهل يواصل أسفاره فى عزم الشباب إلى آفاق متفرقة من الشرق لا ندرى حقيقة أغراضه منها ! ! !

قلت إنهم رجال فهموا من حقائق الحياة ما لم نعرف من أبجدياتها إلى اليوم .

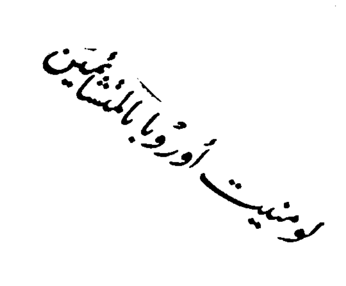
والواقع أننا فى حاجة إلى من يفتح عيوننا على هذه الأسرار ، ويدفع شبابنا إلى العمل الدائم ، ويعلم أغنياءنا وأصحاب الأعمال الكبيرة فينا كيف

يستغلون نشاط الأقوياء منا ، ويغرونهم بالتشجيع الذى يحملهم على مزاولة الصعاب ، ويدفعهم إلى اقتحامها .

دعونا ننظم فى خطوتنا الأولى فرقا للكشافة من فتياننا ترود جبالنا، ومسالك ودياننا ، وتتعرض فيها للحر والقر ، ومجالدة الصعاب لتألف الحياة الخشنة ، وتنشأ على حب المخاطرة .

إن فى هذا ما يعدهم فى المستقبل للمغامرة فى جميع ميادين الحياة ، ويؤهلهم للعمل الدائب فى مختلف شئونها . . وإذا استطعنا أن نغرى بعضهم بالتنقل بين أمصار العالم المتمدن ليتصلوا هناك بألوان الحياة المختلفة، ويختلطوا بالعاملين فى شتى حقولهم ، واستطعنا أن نزودهم بما يشجعهم على طول الاغتراب فإننا سنربح - غير الجامعيين من رجال العلم - شبابا له لونه الخاص ، وملكاته الخاصة فى حقول عملية جديدة . . فاحزموا أمركم أيها الأغنياء . . .

ودعونا نمشى ! !



لا يؤلمنى شىء ما يؤلمنى أمر المتشائمين بيننا « ماذا نعمل ؟ ماذا نصنع ؟ كيف يتسنى لنا أن ننجح ! ونحن فيما نحن كما ترى !! ؟ »

إن الأمر أيسر مما تظنون . . انسوا السلبية ، وامضوا فى سبيلكم.. إن هذا المضى وحده نجاح قبل أن يواتيكم النجاح ! !

كيف يتسنى لنا أن ننجح ونحن فيما نحن فيه ؟ - أى شىء هذا الذى يهولكم مما نحن فيه ؟ أتروننا متأخرين أكثر ممن كانوا متأخرين قبل أن يتقدموا ؟

إن أوروبا كانت فى أحد الأيام قبائل تحكمها الفوضى ، ويسودها الإقطاع ، وتسيطر الهمجية على أنحائها بصورة نسمو عنها اليوم ، كما تسمو حياة السويسرى المنظمة عن مثلها فى حياة البدوى من سكان (القضيمة) . . ومع هذا فإن أوروبا لم يمنعها ذلك من الرقى ، ولم يمنعها من التقدم الذى بلغت شأوه اليوم .

فلو منيت أوربا فى عهد تأخرها بمتشائمين يفتون فى عضدها ، ويهمسون فى أذن العاملين بها « ماذا نعمل ؟ ماذا نصنع ؟ كيف يتسنى لنا أن ننجح ؟ » لظلت فى مكانها من مؤخرة الصفوف إلى اليوم ، ولما مضت خطوة واحدة فيما مضت فيه من مسالك الحياة .

إنه لا مستحيل فى الأرض ، وإن جميع الأمم فى جميع أدوار التاريخ مرت بها أطوار ارتفعت بها ، ثم هبطت . ثم عادت فارتفعت ، ثم تداول عليها الارتفاع والهبوط . . تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إن سكان أمريكا الأصليين من الهنود الحمر كانوا قبل غزو أمريكا مثلا من أمثلة التأخر والهمجية . . ولكن الرائدين الأول اكتشفوا فى معابدهم وآثارهم ما يدل على أنهم كانوا أهل حضارة بلغت من المدنية مبلغا عظيما . . فكيف انساقت بلادهم إلى مثل الهمجية التى شوهدوا فيها قبل اكتشافها ، وكيف تبدلت الهمجية فى نصف قرن إلى حضارة منقطعة النظير ، وحل فى الأمريكتين محل التأخر تمدن يحتل المركز الأول بين الأمم الراقية فى عصرنا الحاضر ؟ . . . لا شىء إلا أنها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ثم ما بالنا نبعد فيما نستشهد وهذه بلادنا كانت فى أحد الأيام قبل ابتعاث النبى (صلى الله عليه وسلم) مثلا من أمثلة الجهل ، فما كاد النبى أن يعلن دعوته حتى تبدل الجهل علما وحل محل التأخر حضارة ذاع أمرها ، وشاع صيتها ، واستضاء العالم بنورها طوال عدة قرون .

ودالت الأيام كما تدول فى تاريخ أمم الأرض قاطبة . . فإذا العلوم تتبخر عن جهل مطبق ، وإذا مدنية محمد صلى الله عليه وسلم تغيب وراء ظلام شامل نعانى وطأته إلى اليوم .

فهل نستغرب أن تتفتح عيوننا على الحقائق بعد الذى عانينا؟ وأن نمضى مع سنن الكون فنستأنف مجداً زال ومدنية دالت ؟

لا غرابة فى الأمر. ما دمنا لم نخرج عن نطاق ما سن لمن قبلنا، وما سن لمن بعدنا ، ومادمنا قد عقدنا العزم على أن نأخذ بالأسباب المشروعة فى نظم التقدم المعروفة فى تاريخ البشر .

إذن فأى معنى للتشاؤم الذى ينتاب بعضنا فيملؤهم يأسا ، ويصور لهم الحياة كالحة لا ينفذ فيها ضوء؟ . . إنه تشاؤم لا مبرر له لأن جميع الشواهد تدل فى بيان واضح على ما خطونا نحو الحياة الجديدة .

لسنا مغرورين فى أنفسنا لندعى بهتانا أننا بلغنا غايتنا من الهدف ، وأننا انتهينا إلى مكاننا تحت الشمس ، ومركزنا فيما يحاذى النجوم . فذلك هراء لا يقوله عاقل .

ولسنا كذلك متشائمين لننكر محاولاتنا نحو الحياة الجديدة ، وننسى أننا ربحنا إلى اليوم أولى خطواتنا . . فتلك مغالطات لا يقرها منطق .

دعونا نكن واقعيين . . نفهم مركزنا فى جلاء واضح ، لا نمشى مع المتهوسين لنبالغ فى حقيقة ما بلغنا تحت الشمس ، ولا مع السلبيين فنتعامى عن الجهود التى تبذلها البلاد لتدرك المواكب السائرة .

وإذا جاز أن يسوءنا شىء من شأنه أن يعرقل سيرنا فى أولى مدارج نهضتنا . . فسوف لا تبلغ إساءته الحد الذى يبلغه منا المتشائمون واليائسون .

دعونا نثق فى أنفسنا ، ونشعرها القدرة على العمل المجدى ، فنى ذلك ما يشحذ عزائمنا على مواصلة السير ، ويهون علينا بلوغ الغاية . . أما أن ننظر إلى الحياة من خلال منظار أسود . فتلك محاولة تلون أمامنا الطريق بلون كالح لا تنشرح صدورنا لاجتيازه . . فيتعذر علينا المشى ، ويعود رد الفعل على عزائمنا فيثبطها وعلى ما نملك من كفاءة فيشلها .

كانما يعلم أن جماعة المتشائمين أفشل الناس فى الحياة . . ذلك لأن ذهنياتهم الضيقة لا تتسع إلا لضياع الوقت فى الشكوى والتوجع ، وتصوير الحياة من جوانبها القاتمة التى تثير الألم ، وتستدر الدموع وتحيل معانى الرجولة فيه إلى شيء جديد لا يحسن إلا ما تحسنه الندابات المحترفات.

ويتحول التشاؤم فى الشخص إلى يأس قاتل . . ذلك لأن التشاؤم الذى يبلغ الذروة ، ويحيل الطاقة الكادحة فى الرجل إلى أنين باك سوف يسلم إلى اليأس الذى يقضى على جميع المواهب ، ويعطل سائر الملكات .

فما بال بعضنا يريدون أن يتظرفوا فى نظر الناس بما يعلنون من تشاؤمهم كما كان الزنادقة فى عصر أبى نواس يتظرفون بما يعلنون من كفرياتهم ؟ . إنها أساليب شائكة لا تساعد على مواصلة السير ، وإن فى ثناياها من الأسرار ما يثبط العزائم ، ويقلل من نشاطها .

إن أخوف ما نخافه على شبابنا المتوثب أن تسوده هذه الروح .فتعطل مواهبه ، وتقلل من قيمة كفاءته التى بتنا ننيط بها آمالنا ، ونعقد عليها

أمانينا . . فعسى أن تنال صرختنا فى مجامع الشباب ما تستأهله عندهم من استجابة يصيخون فيها لما نرجوه عندهم من مطالب .

قلنا ولا نزال نقول إن عدتنا إلى أهدافنا فى الحياة لا تعدو سواعدهم المفتولة ، وعزائمهم النشيطة وتحصيلهم الثقافى ، واستعدادهم الذهنى .

إن دعاة النهوض من جيلنا القديم لا يجهلون مركز شبابهم فى الحياة الجديدة . وهم على أتم استعداد لتسليمهم مقاليد النهوض على أن تمضى صفوفهم قدما نحو فجر جديد تتمتع فيه بالأضواء المشرقة التى أنارت دروب الحياة لجميع من سبقنا من الأمم المتمدنة فى الأرض .

فهل يقبل الشباب دعوتنا ويستجيبون لما نرجو عندهم من آمال ؟ . وهل يستطيعون أن يعدونا بمواصلة السير دون أن يثبطهم ، أو يفل من عزمهم يائس ؟؟ نرجو ذلك ونتمناه .

فاخطوا أمامنا . .

ودعونا نمشى !!

وى ياولد.. قرش الزواج مخلوف

لا تزال سمات البدائية تلوح واضحة على كثير من مظاهر حياتنا الاجتماعية ! !

إن الرجل البدائى يتكلف لحياته أكثر مما يتكلفه الرجل الراقى . . فالألوان الزاهية والأردية الموشاة بالمطرز والمقصب ، والأثواب المحلاة الفضفاضة ، والمجلس المكتظ بقطع الأثاث الفخمة . كل هذه مميزات الرجل البدائى الذى يتكلف لمظهره مالا يتكلفه الرجل الراقى وهو يتعشق البساطة بكل ما فيها من رشاقة وظرف ! !

فإذا ادعينا أن بيننا اليوم من يعيش عيش البدائى فإن دعوانا لا يعوزها التماس الأدلة من أقرب المظان . . لأن طابع التكلف الذى يسود أكثر مقدراتنا فى الحياة يكاد ينطق بما يؤيد ذلك ويثبته .

نحن لا نستطيع إلى اليوم أن نحيى ضيفا أو نكرمه إلا إذا وضعنا السكين فى عنق خروف أو أكثر ، وتركنا مدخل دارنا الضيق يستعر بالحطب الملتهب تحت القدور المنصوبة ، وتركنا بيتنا يكتظ بالمواعين والأوانى ويزدحم بالمباشرين ، وتضيق مائدتنا بالسمن والدسم . . فى صورة لا تختلف عما كان يفعله أجدادنا يوم كانوا يعيشون فى ظلال الخيام على حوافى البادية.

وهى خلال لا يعرفها الرجل الراقى ، ولا يقر أسلوبها بحال .. لا لأنه يجحد واجبات الضيف ، أو ينكر حقوقه على المضيف . . بل لأن الضيافة فى أرقى درجاتها لا تعنى هذه (العفاشة) بقدر ما تعنى التعبير الرقيق فى تقدير الضيف وإيناسه ، وإبداء شعور الولاء نحوه . . . ولا يعجز الراقى أن يعبر عن كل هذا بمائدة عائلية تجمع إلى بساطتها ألوانا لذيذة فيها من الظرف والجمال أكثر مما فيها من البذل (العفش) ! ! أو أن يدعوه إلى حفلة مختصرة فى أول مطعم يصادفه .

هذه البساطة فى التعبير عن احترام الضيف تؤدى عندهم نفس المعانى التى نؤديها ونحن ننحر الخرفان ونثير فى بيوتنا الضجة والارتباك اللذين يثيرهما مقدم الضيف ، واللذين نكلف من أجلهما موازنتنا ما يعرضها للاضطراب .

ولا يقل شأننا عن هذا فى عموم ولائمنا واحتفالاتنا إن لم تزد عليه فى مناسبات الأفراح أو مآتم الأتراح . . . فحفلات العريس عندنا مظهر صارخ من مظاهر البدائية . يتجلى فيه تكلفنا فى صور لا يرضاها مجتمع شذب الرقى طباعه ، وهذب ذوقه ، وأعده لتفهم الجمال فى صوره الرشيقة الجذابة .

أى تكلف هذا الذى يزين لسيداتنا ارتداء الفساتين من ذات الأثمان الفاحشة ؟ أهو حب الظهور أمام لداتهن بمظهر الغنى الكامل ؟ أم فرحتهن بلمعته ؟ ؟ إن كان الأول فما أشد غرورهن فيما يظنن ، لأن الفتيات فى سائر

الأوساط الراقيـة يضحكن من سذاجة محبات الظهور . وإن كان الثانى فلا أدل منـه على البدائية والتأخر . . لأن البدائيين وحـدهم هم الذين يستنسبون الألوان اللامعة ويستذوقون زخرفها المبهرج .

يمعن سيداتنا فى التكلف . فتأبى الواحدة أن تكرر لبس ثوب ارتدته فى حفل سابق . . وهو إغراق فى التظاهر بمظهر القدير الموسر . . إغراق لا يتكلفه إلا غبي لا تتسع آفاقـه لفهم الأشياء على حقائقها . . . والناس لا يجهلون مراكز معارفهم من الغنى ، ولا يهزؤون بشيء هزأهم بالأغبياء الذين يحسبون أنهم قادرون على تضليل الناس عن حقائق مراكزهم ! !

ويبدو الغباء أشد نكرا ، وأفظع مقتا فى مواقف اللاتى يقصدن بيوت الإجارة ليكترين الأردية التى رصعها أصحابها بالمزخرف من الزجاج أو ما يشـبه الزجاج ، وعرضوها للساذجات يستأجرنهـا فى ليالى العرس ساعات محدودة يفرحن فيها بالبريق الـكاذب ، ويدفعن لقاءه ما يكفى لشراء فستان يملـكنه ويستطعن أن يتجملن به فى أكثر من مناسبة .

إنهن يفضلن أن يفرحن بالبريق الخلاب الذى تشـعه قطع الزجاج فى ثوب الـكراءدون أن يبالين بالقيمة التى يستطعن صرفهـا فى ثوب يمتلـكنه . . . وهى فرحة لا تختلف عن فرحة جداتهن يوم كن فى خيامهن يعشن بين التلاع أو فى ثنايا منعرجات الوديان ، ويحلين براقعهن بقطع من النحاس اللامع ، أو فصوص الزجاج البراق .

إنها بدائية يضحك منها كل مجتمع فى الأوساط الراقية ، ويهزأ بها كل مهذب تذوق الجمال ، وفهم من أسراره مالا يفهمه البدوى القدم ! !

ومضى إغراقنا فى هذا التكلف إلى آماد بعيدة فى حياتنا . نرجو أن تعرض لها فيما يأتينا من أحاديث ، وسنستدل من شواهدها على مبلغ بدائيتنا فى عصر كهذا بلغ شأوه فى الحضارة والتمدن إلى أسمى ما بلغته العصور فى التاريخ .

فدعونا يا قوم نستشعر حقائقنا ، ونفهم الأمور على أوضاعها الصحيحة ، ونسمو بأذواقنا إلى الحد الذى سمت إليه أفكار العصر .

حدثنى صديق كان يكره أن تقوده العادات السيئة إلى شىء لا يقره منطق العاقل ، فقال عندما امتحنت بزواجى بيت العزم على أن ألغى جميع التقاليد التى عشت أمقتها ، وأنتقد أعمال الناس فيها . . وكنت أعلم أن والدتى، وأهل بيتى سوف يسيئهن ألا أأتمر بما يرين من ترتيبات وتنظيمات.. ولكنى عقدت العزم على إقناعهن ، وصرفهن إلى المفيد النافع فلم تنجح محاولاتى .

أعلنت إلى أهلى أن موجودى من النقد محدود ، وأنى إذا دفعت المهر المفروض فسوف لا يبقى فى جيبى إلا ما يكفى لنفقات وليمة محدودة . . فصعق من حولى من النساء ، واعتبرن أعمالى فضيحة لا يقدم عليها عاقل والتجأن إلى أمى ليضعن يديها على مبلغ جنونى . . فما سررت لشىء كما

سررت بالتجائهم إلى أمى ، لعلمى بمبلغ تجاربها فى الحياة ، وخشيتها على مستقبل ولدها الذى بات محتاجا إلى كل قرش يصرفه فى مثل هذه الترهات.

ولكن أمى أبت إلا أن تنسى حنانها ، وأن تلغى تجاربها ، وألا تصغى إلا إلى صوت العادة المقيت : (وى يا ولدى . . إحنا صدقنا على الله نفرح بك فى هذا اليوم . . يعنى ليش تخلينا هرجة فى لسان الناس ! . لا ، لا يا ولدى أنا ما أقبل هادى اللآمة . . شوف عمك صالح قال لى اللى ينقص عليكم على غلاق الباب . . قوم استلف لك منه مائة جنيه . . وقرش الجواز مخلوف ! ! »

بأى لسان أحاور أمى التى أملت فيها كمال العقل ، وبأى لغة أخاطب أخواتى وخالاتى ؟ ؟ إنهن يأبين إلا أن أخضع لقواعدهن ! والقرش مخلوف ! ! أو يثرنها حولى عواصف من التفجع ، والندب ، والبكاء الذى نغص أيامى وأحالنى إلى طفل ضعيف الإرادة سهل القياد . . وبذلك تكلفت مضطراً جميع الواجبات التقليدية التى أملوها على . . وهأنذا إلى اليوم وبعد قضاء عدة سنوات من زواجى لا أزال أعانى من إرهاق الديون ما لا يعلم بوطأته الشديدة إلا الله .

والواقع أن مأساة صديقى هى مأساة بيوتنا جميعاً . . السيدة تأبى فى بلادنا إلا أن تتميز فى مآدب الأفراح عن طبقتها بما تتكلفه من مظاهر الغنى الزائف فتعمد إلى استئجار عقود اللؤلؤ أو حلى من الماس يعرف

جميع أصدقائها أنها لا تتفق مع مستواها، وأنها لا تملك من ثمنها إلا مادفعته إيجاراً إلى ساعات محدودة .

فيم كل هذا التكلف والزيف ؟

إن الكاذب الحاذق لا يتكلف الفشر إلا فى أوساط تجهل أمره فما بال سيداتنا يتكلفن الغلو فى زينتهن فى أوساط تعرف أن ما نيط بأعناقهن وأيديهن لا يملكن من أثمانه شيئا ؟ !

ليتنى أجد من يدلنى على معنى هذه الزينة وقيمتها وأنا أنظر إلى فاطمة وفى جيدها عقود لآل فلان الفلانى ، وفى يديها أسورة أعرف أنها من حلى بيت الزلبانى ! !

إنها البدائية فى أثقل صورها ، وإنها السذاجة فى أسمج أشكالها .

إن المجتمعات الراقية لا تحفل بهذا التكلف المصطنع ، ولا يرهق أفرادها أنفسهم بهذا الزيف المقيت . . فحسب السيدة منهن أن تعد للمآدب الممتازة ثوبها النظيف ، وأن تحلى جيدها إن استطاعت بقطعة من الماس أو اللؤلؤ تملكها ولا يزيد ثمنها عن مستوى السيدة فى بيئتها .

إن السيدة المهذبة تعرف قدر نفسها . . فلا تحاول أن تغلو فى تقدير مركزها فى نظر أترابها ، وتأبى أن تخدع نفسها ، أو تضلل غيرها لتبدو على غير حقيقتها . . وهى على عكس السيدة البدائية التى تتكلف البهرج الذى لا يتناسب مع مركزها فى الغنى والجاه . . فتثير ضحك العاقلات أكثر مما تحوز إعجابهن ، وتحملهن على مقتها قبل أن تظفر باحترامهن .

سيقول البسطاء من الناس : ولكن ما معنى هذه الحفاوة التي يجدها المتبرجات ، والمتكلفات للزينة في حفلاتنا ؟ وأين المقت الذي تخشاه عليهن ؟ إنه لا أثر له في جميع أوساطنا .

وهو اعتراض لاغبار عليه فقد تطورت المأساة حتى فقدنا الإحساس بما نعانيه من آلامها .. وذلك دأب جميع المآسي التي يألفها الإنسان فينسى نواحي العيب فيها ثم لا يلبث أن يندمج فيها ألف ، حتى يفقد الإحساس بحقائقها الموغلة . . وقد يتطور شأنه معها إلى أكثر من هذا حتى يصبح الألم مصدرا لألوان من اللذة يفسرها النفسانيون بما يفسرون به معاني الشذوذ !!

فإذا كانت مأساتنا قد تطورت إلى حد نسينا فيه آلام عيوبنا ففي ذلك من الشذوذ ما لا يقاس على قاعدة ، وفيه من الخطر ما نخشاه على أحاسيسنا أن تفقد وظائفها في أحد الأيام .

حدثني فتى من شبابنا المتعلم فقال إنني لا أكلف نفسي نزاعا في رفض طلبات قرينتي فقد نظمت معها موازنة واضحة البنود تشمل وارداتنا ونفقاتنا ثم سلمت إليها جميع الواردات ، وكلفتها بتنفيذ البنود . . فإذا عن لها أن تكلفني بطلب يرهق أحلتها على بنود الموازنة وخيرتها لتضغط البند الذي تشتهيه ، ليتوفر لها ما تشترى به ... وعندئذ أشعر أن الحيرة لا تلبث أن تنتابها ، لأنه ليس في البنود ما يحتمل الضغط . . فأتركها لتقنع وجدانها بما تراه ، وتعود إلى مستسلمة خاضعة ! !

إننى أكبر فى هذا الفتى عنايته بهذا اللون العالى من ألوان المعاملات.. ولكنى أعتقد أن دخله المحدود أعانه على انتهاج مثل هـذا المسلك.. ولا أدرى إذا ما واتاه الدخل غير المحدود أيقوى على إقناعها أم يسهل لها مطالبها ويتركها تثير روح المنافسة فى أترابها بما يخلعه عليها من بهرج براق ؟

على أنه ينقصنا هـذا النوع من السيدات.. النوع الذى يجيد تنفيذ الموازنات، ويقبل أن يخضع لبنودها، ويرتبك عند ما يفاجئه طارئ لا محل له بين أبوابها.

أعتقد أننى لا أغالى إذا قلت إن معظم سيداتنا لا يرهقن أنفسهن بالخضوع لما تنظمه أبواب الموازنات فى بيوتهن إذا قبل الرجال توليتهن أمرها.. وإننا قد لا نجد السيدة التى تضطرب إذا ارتبكت موازنتها... إنهن أجرأ مما نتصور لأن فى استطاعة الواحدة منهن أن تمر بجرة قلم على جميع البنود إذا رأت فى أحد أبوابها مايحول دون مطالبها، وأن تضرب بيد من حديد جميع القواعد التى قامت الموازنة على أسسها لتتمتع بما تشتهيه (وضربة دم على الموازنة واللى جابوها.. أنفق يا سيدى اللى فى الجيب يجيك ما فى الغيب) !!

دعونا أيتها السيدات نفهم واجباتنا فى المنزل على ضوء الحقائق الناطقة، وننظم أمورنا فى نسق متزن يصون بيوتنا من النزق، ويضمن لنا فيها حياة لا يشوبها اضطراب أو عبث.

وأخيرا دعونا أيتها السيدات..

دعونا.. نمشى !!

وتتداعى المعانى بين يدى
بحثا عن هـذا الذى نرهق به
جيوبنا لتستطيع سيداتنا أن
ترضى بما تكلفـنا بعض
التقاليد الشائعة بما فى شيوعها
من ترهات وزيف .

هو انت .. بتفكر يوم تتزوج

وتتداعى المعانى فيحلو لى أن أتابع البحث فى مثل هـذه الألوان لنرى إلى أى حد تأسرنا هذه الترهات وتملك علينا أزمة أمورنا .

لا ينكر أحد أن أغلبية شبابنا الساحقة لا تجرؤ على البحث فيما يكمل عليها دينها ، ويضمن لها الشطر المتمم لسعادتها .. ذلك لأن السبيل إلى هذه الغاية محفوف بتقاليد لا نهاية لتكاليفها المرهقة .. ونفقاتها الطائلة .

لا يكفى أن يعرف الشاب طريقه إلى بيت مخطوبته ليقـدم إليها ما نصحت به السنة ، ورضى به وضعه المالى فى حدود لا ترهقه نصبا ، ولا تكلفه من أمره عسرا .

إن مثل هـذا السبيل لم يخلق بعـد ليسلك الشباب فيـه طريقا ناعما يفضى بهم إلى استقرار سعيد ، وعيشة هانئة . فإذا أحجم الشبـاب عن سلوكه . . فالذنب فى هذا ذنب الترهات التى تركتها تقاليدنا تنبت عـلى حفافى الطريق كما تنبت الطفيليات فى أحواض الزهور . . فتأخذ عليها نصيبها من النمو والازدهار وتحيل أحواضها الجميلة إلى منابت للشوك والعوسج .

إن الشاب بيننا لا يبلغ سن الزواج حتى تقحمه تقـــاليدنا فى مآزق لا يدرى كيف يضع قدمه فيها . . إنه مطالب لدمه الفوار وطبيعته الحارة بمطالب جنسية لا هوادة فيها ولا محيص عنها ، ولـكن التقـاليد تأبى أن تعترف بمـا يعانى لتتنازل عن ترهاتها الزائفـــة . . وتيسر له السبيل إلى ما يصبو إليه .

إن من التكاليف المفروضة أو الفروض المتكلفة ما لا يقـــوى على احتمالهـا كاهل . . فوا رحمة للشباب الممتحن فى عفافه وشبابه . . أمام إصرارها العنيد وفروضها القاسية ! !

وتتمثل التكاليف بترهاتها التقليدية أكثر ما تتمثل عندنا فى البيئات البدائية التى لم يرتفع بها مستواها إلى فهم الحياة على حقائقهـا ، وتجد من نسائنا المتأخرات تشجيعا منقطـع النظير « وى ياخويا . . هـو انت كل يوم تبغا تتزوج . . لا . . لا بلاش فضايح . . إما تسوى شى على أصوله . والا بلاش تبهدلنا » .

ترى ما هذه الأصول التى يردننا لنسوى أمورنا فى الزواج بموجبها ؟

إنها سلسلة من التكاليف المرهقة لا يقرها منطق ولا يرضاها عقل . . إلا إذا أردنا أن نسمى تصرفات بعض سيداتنا الجاهلات عقلا .

إننى لا أتهجم على سيدات فيهن أمى وأختى ، ومنهن قريباتى بنسب أو صهارة أو جيرة . . وليس بينهن إلا من تعز عـــلى . . لا أتهجم عليهن

ولكننى أجد المغبونين بأحكامهن الظالمة ، وأوامرهن الجائرة ، مسألة لاتقبل التسويف أو التراجع ! !

ما معنى هذه الجلبة التى يضج بها بيت العريس ، ويضج لها بيت العروس قبل موعد الزفاف بأسبوع ؟ . . إن سيداتنا فرحات بابنهن العريس أو ابنتهن العروس . . فليفتح البيت أبوابه (للزيطة) الفارغة ، ولتستعد الجيوب بما كتب عليها من إرهاق ! !

ثم ما معنى هذه الجموع التى يغص بها دار العريس وملحقات داره من بيوت الجيران قبل موعد الزفاف بأيام . . يرتعون فيها بين ما لذ وطاب أهى الفرحة بمعناها اللذيذ ؟ . أم هو التقليد الموروث بنفقاته الباهظة وتكاليفه المدمرة ؟

وأخيرا ما معنى هذه البنود المفتوحة لأرقام لا حدود لنهايتها ليلة العرس ، وقبل ليلته ، وبعدها ؟

أأموال هى رخيصة لاوزن لها ولا قيمة عند أصحاب العرس ؟

أبذل هو نستنزفه من أفئدتهم ، ونقتطعه من قلوبهم ثم لا نتركهم حتى نوسدهم الأرض من هول ما أصاب جيوبهم ؟ ؟

ليتنا ندرى إلى أى حد نجنى على ضحايانا من الشباب المقبل على الزواج ونعرف مدى ما تصيبهم به فى أموالهم وأنفسهم ليرضوا تقاليدنا الرثة وعاداتنا البالية ؟ !

سيقول المتحذلقون منا إن مثـــل هذه التكاليف لا تصيب إلا القادرين عليها ، لأن العاقل منهم سوف لا يقحم نفسه فيما ينوء تحت أعبائه ، ولا يتكلف فى أفراحه إلا إلى القدر الذى يقوى على احتماله . . وفى هذا من المغالطة ما يستحق الدراسة والبحث .

إن جميعنا يعلم أن الفقير الذى يشعر بنقصه عن جيرته وأقرانه يأبى إلا أن يغطى نقصه بما يتكلف فى مثل هذه المناسبات ! ! ليثبت لغيره كماله المزعوم .

تلك مأساتنا التى نتمنى علاجها فى الأوساط الفقيرة . . قبل أن نعنى بالميسورين والأغنياء فى بلادنا .

إننا لا نجرؤ على انتقاد فقرائنا عندما يزجون بأنفسهم فى مثل هذه المشاكل التى يقاسون من فداحتها ما يقاسون . . لأننا نعلم أنهم يستجيبون فى أعمق أعماقهم لمشاعر لا يقدرون على السيطرة عليها . . إنهم يندفعون من حيث لا يشعرون إلى تقليد الأغنياء ليرضوا كرامتهم المجروحة ، ويثبتوا لأنفسهم أنهم لا يقلون كفاءة أو بذلا عن أندادهم رغم فقرهم المدقع وحاجتهم إلى (القرش الواحد) .

ولكننا نستطيع أن نجرؤ على أصحابنا الأغنياء ، راجين إليهم أن يكفوا عن جميع المظاهر الزائفة التى يتظاهرون بها فى أفراحهم ليدللوا على مكان غناهم فى بلادنا . . نستطيع أن نقول لهؤلاء إنكم أكبر من أن

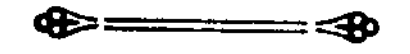
تتكلفوا هذا النصب ، لتثبتوا رتبة الغنى فى بيوتكم . . فنحن نعلم عن درجات الغنى بينكم ما لا نحتاج معه إلى تدليل أو إشهاد .

ما أحلى أن تطمئن نفوس أغنيائنا إلى هذا ، وأن يتفقوا فيما بينهم على التواضع وإخفاء تظاهرهم رحمـــة بالفقراء الذين يندفعون خلفهم تحت تأثير عوامل لا يستطيعون عصيانها . . ليثبتوا لأنفسهم غنى موهوما ، وثراء زائفا .

اضربوا الأمثال لفقرائنا بتصرفاتكم العاقلة . . ليقول الفقير غدا لمن يلحاه : إن لى أسوة بهؤلاء الوجهاء الذين أضربوا عن التقاليد المرهقة ، واكتفوا فى أعراسهم ومآدبهم بالبسيط الذى لا يكلف ، والجميل الذى لا يرهق .

اضربوا الأمثـال أمامنا . .

ودعونا نمش ! !



تفضحنا بين الناس .. وتحملنا ميره

وإذا مضى بنا السياق فى بحث هذه التقاليد المرهقة التى تحول دون إقدام شبابنا على الزواج فستصادفنا ألوان لا تقل مآسيها عن المشاكل التى ألممنا بها .

إن الشباب الذى زج بنفسه بين هذه المآزق من تقاليدنا المرهقة لا ينتهى نصبه بانتهاء أيام الفرح . . فثمت مراسيم تتسلسل بتسلسل المناسبات التى نجددها .

هناك ما نسميه (السابع) وهو يوم مشهود لا يقل فى عنته، وتكاليفه عن عنت وتكاليف غيره من أعيـاد المناسبة ، وهناك (البداية) التى يستعد فيها أهل العروس وأقرباؤهم بما يرهق جيوبهم ويستنزف أموالهم ويستعد العريس بما يحمل عروسته فى نظر أهلها حتى لو اضطر إلى الاستدانة وسؤال الناس .

وتتوالى الأيام فتتوالى النكبات كلما تجددت مناسبة اقتضتها الولادة أو اقتضاها المرض ، أو اقتضاها الموت . . لنا فى كل حدث تقليد ولكل تقليد مراسم ، ولكل مرسوم فروض لا آخر لعللها،ولا نهاية لتكاليفها .

إننى أعتقد أن عصور التأخر بما غمرها من فراغ وجدة علمتنا التشاغل بأمثال هذه الترهات التى كنا نبدد فيها أوقاتنا ونهيء لأنفسنا من مناسباتها

أعياداً تبدد ما انتابنا من سأم الحياة المتواترة على نسق واحد ليس فيها ما يجدد النشاط ويلون الحياة .

أما اليوم وقد شرعت تنجاب غياهب الجهل ، وبدأ مستوى الحياة الرفيع يبدد الجدة ، وأخذنا نشعر بحاجتنا إلى كل دقيقة من أوقاتنا التى كنا نبددها فى الفراغ . . فمن العيب أن نترك حياتنا الجديدة تتلاعب بها عواصف التقاليد الموروثة ، ونبيح للترهات أن تعصف بمادياتنا فى وقت ارتفع فيه مستوى العيش ، وأصبحنا نحتاج إلى كل قرش نربحه لمستلزماتنا الضرورية .

وإذا كان لأجدادنا عذر فيما مضى بما ران على بلادهم من جهل ، وعذر بما اتسع أمام أوقاتهم من فراغ ، وعذر بما كانت تدره أرباح الحجاج عليهم ، وهم أقلية محدودة يغمرهم وابل الحجاج بفيض يسعهم . . إذا كانت هذه أعذارهم فما هى أعذارنا بعد أن انتشر التعليم فى آفاق بلادنا وبدأت الأذهان تتفتق لتفهم الحياة على حقائقها ؟ . ثم ماهى أعذارنا بعد أن ضاقت أوقاتنا بحركات العمل الصاخب التى باتت تضج به البلاد وبعد أن ارتفع مستوى معيشتنا حتى أضحت الأرباح على توافرها وكثرة مواردها تعجز فى كثير من الأحيان عن إيفاء حياتنا الجديدة ولوازمها الطبيعية ؟

لا يجب أن تحكمنا عادات كانت تحكم عجائزنا من غير المتعلمات ، ولا أن تأسرنا تقاليد ابتكرتها أول ما ابتكرتها الخرافة التى كانت تعيش

فى ظلال ورافة من الغباء والجهل .. والإ فما هى ميزة نهضتنا الجديدة ؟ وما هى قيمة التعليم الذى سطع ضياؤه فى آفاقنا من الحدود إلى الحدود ؟ ؟

قالوا إن الخرافة تنبت فى حياض الجهل ونحن نعلم أن أكثر تقاليدنا فى مآدبنا وأفراحنا وأتراحنا كان مصدرها ألوانا من الخرافات نبتت فى حياض الجهل ،فإذا ظللنا إلى اليوم نستوحى ما اختارته الخرافة فى عهود الجهل ، وما ورثتنا إياه من عادات وما فرضته علينا من تقاليد .. فإن خسارتنا فى مجالى العرفان لا تقدر بثمن ولا تقوم بأرقام .

إننا قد نعذر الجاهل إذا أسلس قياده لما ورث من تقاليد العجائز واحترم عاداتهم احترامه لشىء مقدس . . نعذره لأن الأمور عندما اختلطت عليه وضاع الحق بين صور الباطل . لم يجد فى نفسه الكفاءة اللازمة للتمييز بين صورة وأخرى ، فأسلم قياده إلى غيه ومضى مع السائرين .

ولكن ما عذر المثقف المطلع الذى يملك من طاقة التمييز ما يؤهله لفرز الحقائق ونقدها ؟

ما عذر المثقف إذا شوهد وهو يحتفى بعادات بلغت ذروتها من السخف فيبيح فى بيته إنفاق الأموال فى مراسيم يأباها العقل ، وتقاليد لا يقرها الدين .. وبذلك يترك عنانه لسيدات جاهلات يعبثن به ، ويصحن فى وجهه صارخات : «وى .. بلاشى هتايك .. شوف بيت فلان ! ! إيش سووا . . سوى زيهم . . موتفضحنا بين الناس . . وتخلينا سيرة ! ! »

إذا استطاع المثقف أن يمتاز بقوة العارضة ، وثبات الجنان .. واستطاع أن يستعصى على التقليد الشائع ، وألا يبالى بالفضائح المزعومة فى رأى

الجاهلات فقد أتيحت لبلادنا الخطوة الأولى نحو الحياة الصحيحة التى يحياها العالم الراقى .

حضرت فى إحدى المرات مأتما من المآتم التى نقيمها إحياء لذكرى الميت، فاستغربت البذل السخى الذى رأيته بين موائد الطعام رغم ما أعلمه من فقر الأيتام الذين تركهم الميت ، فملت إلى أذن صديق لى كان يجاورنى فى المجلس أستوضحه معانى ما أرى فتنهد عن حسرة مكتومة . وقال : إن والدة الأطفال كلفتهم الاستدانة ليشيعوا والدهم بما يليق فى نظرها ، ثم كلفتهم فاستدانوا مرة أخرى ما يكفى لهذه المآدب التى تراها . . فى وقت لا يعلم إلا الله مبلغ حاجة الأولاد إلى كل قرش من هذه المبالغ الباهظة يقيمون به أودهم ، ويشبعون بطونهم .

أى مأساة هذه التى تتحكم فى مقدراتنا ، وتوجهنا إلى أسوأ ما يتجه إليه الصم البكم العمى الذين لا يفقهون ؟ لا مراء فى أن الجهل المطبق مهما بلغ إساره لا يفضى إلى مثل ما أفضت إليه تقاليدنا الجائرة ، وعاداتنا المجنونة ولا يمنع المثقفين أن يغضبوا لهذا الجور الطاغى، وأن يصدقوا عزائمهم على حربه . . كل فى بيته بين أهله وذويه .

إننا إذا تضافرنا على هذا فلا شك أن النجاح سيظاهرنا مهما بلغت الشقة ، وامتدت المسافة . .

فتعالوا يابنى قومى إلى هذه الكلمة .

ودعونا نمشى ! ! .

نريد نظمنا لتقدير القيم

دعونا نمشى . . فى قوة الرجال من أصحاب الشخصيات الجبارة ، الذين يحفلون بمراكزهم فى الحياة ، ويعرفون قيمتهم فيها ، ويفهمون وظائفهم فى ميادينها .

ما ضاعت بلادنا يوم كانت ضائعة فى الأجيال المظلمة إلا لأن المهيمنين على مقدراتها أبوا إلا أن يعدوا الأهلين إعدادا خاصا يفقدون فيه حيويتهم ، وحيثيتهم ، ويفقدون شخصياتهم كمواطنين أقوياء يحفلون بالحياة ، ويفهمون واجباتهم فيها .

رحم الله الأمويين فقد نظموا لهذا البلد سياسة يفقد فيها المواطن شعوره بحيويته ، ويفقد فيها اعتداده بنفسه . . . وجاء العباسيون بعدهم فمضوا على سننهم يبرون هذا البلد بخيراتهم ، ويبذلون فيه صدقاتهم ، ولا يبيحون له التنفس إلا فى جو محدود . . لينشأ أهلوه على ما أراد العباسيون لا ما أرادت الحياة ! ! وظلت هذه السياسة تقليدا نافذا فيما تلا ذلك من عهود الفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك . . . أما العثمانيون فإنهم لم يتسلموا الزمام فى هذا البلد حتى كان قد نضج فيه التواكل ، ونسيت فيه الحيثيات ، وأعطيت الشخصية معانى جديدة تتمثل فى ألوان من الخنوع ، والضعف ، والرضا بأرزاق السلطان ، وأعطياته من حبوب الصدقة ، وأموالها .

ولا تستقيم حيثية فى الحياة لشعب يرتزق من الصدقات ، ويرابط فى انتظارها . . كما يرابط قراء القبور ، وفقراء التكايا فى انتظار هبات المحسنين ! !

إن أوقاتهم عندئذ أرخص من أن تعادل بقيمة ، وإن ما يشغلهم أثناءها من أحلام الكسل جدير بأن يصرف أذهانهم عن أى تفكير جدى.. له قيمته فى بناء الحيثية ، ويلهيهم عن أى حركة لها أثرها الفعال فى إنماء الشخصية وتبريزها .

لا غرابة إذن فيما بددناه من عمر الحياة يوم عشنا على هامشها أجيالا طويلة دون أن نترك أثرا يشعر به جيراننا .

تلك أمة قد خلت لها ما كسبت . . أما اليوم وقد خلصنا من ربقة كل دخيل ، وبتنا أصحاب كيان له مركزه بين الناطقين بالضاد . . واستقلت أمورنا عن كل أعجمى كان يخشى أن تنطلق عروبتنا من عقالها . . فما يمنعنا أن ندب على أرجلنا فى قوة الواثق بنفسه ، المؤمن بحقوقه تحت الشمس .

دعونا نبدد أحلام الكسالى التى همنا فى أجوائها قرونا وقرونا ، ونفتح عيوننا على الحقائق المحجوبة وراء الغيوم البعيدة . . دعونا ندرك أن لنا شعثا يجب أن نلمه ، وأن لنا مجدا يجب أن نسترده ، وأن كياننا الضائع وحيثيتنا المتبخرة لا يمنحان لنا منحا ، أو يهديان إلينا إهداء ، مالم ندب

فى طلابها بقوة جبارة، ونقتحم فى سبيلها أفدح الأخطار وأهولها . . لنثبت كيان الجزيرة فى حدودها من شمال حلب إلى نهايتها فى شواطىء بحر العرب!!

دعونا نربى أولادنا على بناء الشخصية التى لا تعرف الخنوع ، ولا تغضى إغضاء المهين ، ولا ترضى لنصيبها من الحياة مقرا وسطا أو ما دون الوسط ، ولا يقنعنا إلا ما يقنع الأسود فى الأدغال .

إذا تعود أطفالنا القوة فيما يمارسون من أفكارهم ، وسائر حركاتهم نمت شخصياتهم فى أسلوب أنف لا يرضيه إلا أن تسمح بأعماله فوق كل مستوى ، وأن يبرز بآثاره على كل مبرز .

هزمت ألمانيا فى حربين متواليتين كانت نتائجهما كافية لتثبيط عزيمة شبابها ، والقضاء على الروح المعنوية فى صفوف العاملين فيها . . . ولكن عنايتها بتربية الشعب تربية استقلالية هيأتها للصمود أمام أحداث الحياة وأعدتها إعدادا قويا ترقب فيه منافذ الانطلاق لتستأنف طريقها إلى المجد .

ما تمنى أعداء ألمانيا شيئا بعد هزيمتها كما تمنوا أن تشل حركتها الصناعية والإنشائية وأن يقتل فيها روح الابتكار والتجديد ولكن أمنياتهم لم تظفر بنائل أمام العزائم الصادقة . . أمام التربية المثالية التى يتجلى فيها بناء الفرد فى أمتن ما يتجلى بناء القواعد من الصلب .

دعونا نجرب هذا اللون من التربية فلا نفسد أولادنا بالتدليل الزائف، ونحاول جهدنا أن نبث فيهم معانى الإقدام، ونحبب إليهم المخاطرة ، ونمرنهم على الاعتداد بأنفسهم ، والثقة بها .

دعونا نلقنهم معانى الكرامة ، والعزة ، والسمو بالنفس ونضع لهم القصص التى تجدف على جميع المتواكلين وتلعن المستضعفين الذين يعيشون على فتات غيرهم ، ولاتسمو نفوسهم إلى احترام حيثيتها والاعتزاز بشخصيتها .

دعونا نأبى على مشهد منهم كل معانى الهوان ونهيء نظامنا على تقدير القيم الإنسانية ونسمو بشخصياتنا فوق كل اعتبار ، ونحي فى أصحاب العزائم والابتكار والإقدام ميزتهم فى هذه الميادين لنثبت من سبيل غير مباشر فى نفوسهم تقديس هذه المعانى العالية، ونغرس فى أعماقهم الازدراء والمقت لما يخالفها .

إننا إذا فعلنا هذا هيأنا جيلا ممتازا عزيز الجانب ، متينا بما تركز فى كيانه من قوة وثبات .

ما أحلى أن تخالفنى فى شرف !!

ما أحلى أن نمشى فى نظافة تؤهلنا للعيش الصحيح فى الحياة .

والنظافة التى نتمناها هنا ليست فى الماء والصابون ، وليست فى الوجه والجسد ، وليست فيما يؤكل أو يشرب . . . وإنما هى نظافة من غير هذه الأنواع . . نظافة مركزة فى مواطنها من الضمائر والنفوس .

ما أحلى النظيف الذى يعرف ما عليه لنفسه ، وما عليه لبلاده ، وما عليه لأولاده ، وجاره وصديقه ، وما عليه لشريكه وعميله ، وقرينه وما عليه لرئيسه ، ومرؤوسه ، وزميله ! !

ما أحلى النظيف الذى يتحرى الكلمة فلا يلفظها إلا صادقة ، ويتحرى الحركة فلا يأتيها إلا صحيحة . . يتحرى ما وعد فلا يماطل فى الوفاء ويتحرى ما ادعى فلا يتكلف الخداع والمين ! !

ما أحلى النظيف دائنا ، ومدينا ، والنظيف غنياً وفقيرا ، والنظيف سائلا ومسئولا ، والنظيف قويا وضعيفا ، والنظيف رئيسا ومرؤوسا .

ما أحلى النظيف تاجرا وصانعا ، ما أحلاه مصدراً وموردا ، ما أحلاه بائعا وشاريا ، ما أحلاه قاضيا ومشرعا ، ما أحلاه على أى حال ، وفى كل حال ! !

ما أحلاك نظيفا فى دست مركزك بين الأوامر والنواهى، وما أحلاك نظيفا بين كتبك فى النظام والقانون ، وما أحلاك نظيفا أمام دفاترك بين الواردات والنفقات ، وما أحلاك نظيفا فى تعهداتك بين الواجب والمفروض ، ما أحلاك نظيفا على أى حال وفى كل حال !

ما أحلاك نظيفا وأنت تخالفنى فى شرف ، وتخاصمنى فى حق وتحاجنى فى براءة ! !

ما أحلاك نظيفا وأنت لا تبيت قهرى فى باطل ، ولا تتكلف دحضى فى ظلم ، ولا تتعمد إساءتى فى طغيان ! !

ما أحلاك نظيفا وأنت تعرف أخطاءك فلا توارب فيها ، وتعرف مواطن ضعفى فلا تستفيد منها ، وتعرف وجوه الحق فيما أدعى فلا تأخذك العزة . . ما أحلاك نظيفا على أى حال ، وفى كل حال .

ما أحلى نظافتك وأنت لا تستغل وجاهتك لكيد الضعيف ، ولا يخدعك مركزك فتشايع القوى ، ولا تغريك ثقة أصحابك فيك فتنسى كل شىء إلا منافعك ، وتهمل جميع المصالح إلا ماله علاقة بثرائك !

كن نظيفا ، وثق أن الأيام دول ، وأن ما تستفيده اليوم بوجاهتك أو منصبك ، ستخسر أضعافه إذا فاجأتك الأحداث أو عاكسك التيار .

كن نظيفا وضع فى حسابك أن وفاء الصدف للمحظوظين ما عاشوا لا يخدع التاريخ المنصف ، ولا يزيف حقائقه مهما بولغ فى الطلاء ،

وأجيد الغش . . . فكن بريئا للبراءة ، وكن نظيفا فى كل حال وعلى أى حال .

إننا نخطو اليوم وئيدا على ضوء فجر جديد . . أما آمالنا فقد سبقتنا إلى آفاق لا تدانيها مواقع النجوم بعداً ، فدعونا نؤهل نفوسنا لما أملنا ونعدها إعداداً نظيفا صالحا لما بتنا نحلم به من مجد فى الحياة .

إننا لا نجهل أن بلادنا اليوم تقع فى مركز القطب من دائرة الحياة . . ذلك لأننا بتنا محسودين من كثير من أمم الأرض على ما نلنا من غنى ، وما صادفنا من حظ . . . وباتت أعينهم تسلط أضواءها على كل حركة نخطوها لتستشف ما وراءها ، وتعرف أى سبيل نحن سالكوه فى جدد الأرض ، وأى مدرج نحن دالجوه فى آفاقها .

لم نكن ملومين فى أحد الأيام فى جميع مافرطنا فى الحياة . . ذلك لأن شهرة بلادنا بالفقر فى عهودها الماضية كانت وحدها كافية لما ننتحل من أعذار لأنفسنا . . . كنا نقول ، أو يقول غيرنا إن الفقر مطية جميع الشبه سياسيا ، واجتماعيا ، وأدبيا . فماذا نقول اليوم عن أنفسنا وقد تفجرت الأرض عن ينابيع الغنى ، وجادت بالملايين التى أوشكت أن ترفعنا إلى مصاف الأمم من الدرجة الأولى ؟ ؟

ماذا نقول اليوم إذا اتهمنا متبجح فى نزاهتنا أو أخلاقنا ؟ ؟

أنقول إن الغنى أبطر بلادنا ؟ وإن الثراء الذى يخدم أهداف الأمم ، ويفتح عيونها على حقائق الحياة ،عاد إلينا برد الفعل ،وهيأنا لأسو أما تخشاه الأمم من أخطار ؟؟

سيقول قائلنا إن هـذا تسرع فى الحكم ، وإن النظر الرتيب الثاقب لا يؤيد مثل هذا المذهب .

وهو رأى له وجاهته ، . . فالأمم لا تقاس أخلاقها بمـا يصادفها من مفاجآت، لهذا فإننى لا أستطيع أن أستبعد أن ما نعانيه اليوم من فورة لا يعدو أن يكون أثرا من آثار الغنى المفاجىء ، وأن الأيام القريبة القادمة ستكفل لنا حياة الاستقرار، وتساعدنا على الخطوات الوئيدة الرزينة ، وتفتح عيوننا على أفضل ما فى الحياة من سبل ، وأنظف ما فيها من أخلاق ، وأحلى ما فيها من جمال . . وعندئذ سنكون أهلا للمركز العالى الذى يجب أن نحتله بين أمم الأرض .

يوم كنا نجامل الغبى

كنت فى حديث مع أحد المتخرجين من حملة الشهادات العالية .. فساقنا البحث إلى ذكر منصبه الذى يتمتع براتبه الضخم فسمعته يثنى على همة كبير من رجالنا المعروفين بالشهامة ، ويقدر فيه ما بذل من جهد لمعونته فى الظفر بهذه المرتبة .

ولعله كان ينتظر أن يرى أثر حديثه على صفحة وجهى . . فرأى جمودا لاينطق بمعنى ، وصمتا لا يعبر بحرف . فهاله الموقف السلبى ، وأبى إلا أن يسمع تعليقى فى الموضوع .

قلت ليس لى ما أعلق به على صاحب الفضل فى مساعدتك .. خصوصا وأنا أعلم أن شهامته تتسع لأى شخص قصده غيرك ، فهو عظيم من غير شك فى أخلاقه ، كما هو عظيم فى وجاهته .. وهو الرجل الذى لا يبخل بمركزه على محتاج ولا يضن بجهده على قاصد ، ولكننى أنعى بهذه المناسبة حياة المحرومين الذين لا تجمعهم بأمثال هذا العظيم جامعة ، ولا يعرفون من حقيقته ما يجرئهم على أن يقصدوه ! !

أنعى حياتهم لأن المؤهلات التى حسبوها ترشح للمناصب العالية كان ينقصها فى بعض الأحيان وساطة أمثال هذا الشهم ، والاستعانة بوجاهته !!

ما أحوجنا في هذه الفترة الناهضة من حياتنا إلى أن ننق تقاليدنا من هذا اللون ، وأن نعترف للكفاءات بحقوقها المكتسبة ، وأن نسمو بأخلاقنا فوق جميع الاعتبارات . . التي لا تشرف شعباً يتحفز للحياة الصحيحة .

يجب ألا نحرم الشاب نصيبه من الجهود التي يبذلها ليستكمل عدته في الحياة ، ولا نتركه يكفر بنتائج الكفاح ، أو يعتقد أن نجاحه مرهون بيد تمهد له طريقه في الحياة وتهيء له وسائل الظفر فيها .

إن شيوع مثل هـــذا اللون في الأمة دليل ناطق على عدم استكمالها شروط الرقي ، وهو إلى جانب ذلك يشير إلى معاني الضعف في مقوماتها الحيوية .

دعونا نتسلح بالأخلاق المتينة التي تقوى على مواجهة الحقائق في ثبات وصراحة .. لا تشوبهما مواربة ولا تفسدهما مجاملة .. فحسبنا ما عانينا من الآداب الزائفة طوال قرون قضيناها في مؤخرة الصفوف . لا يؤبه لأمرنا ولا نقوم بين الشعوب بوزن .

قالوا إن هتلر عندما صنف الأمم في مؤلفه (كفاحي) جعل كثيراً من شعوب الشرق الأوسط لا تستأهل أكثر من المرتبة الثالثة عشرة بين مراتب الأمم . . وكانوا حسبوه قد تجنى فيما صنف . . ولو كنا نملك من متانة الأخلاق ما يثبتنا أمام الحقائق ويشجعنا على مواجهتها بصراحة لما ساءتنا جرأته ، ولا ستطعنا أن نضع يدنا في يده مؤمنين عـــلى ما يقول مؤيدين ما يدعى !!

أكنا ــ نحن مجموعة شعوب الشرق الأوسط أو أكثريتنا إذا شئنا التحديد ــ نستأهل أن نرقى إلى أكثر من المرتبة التى ادعاها هتلر ؟

دعونا نحاسب أنفسنا ونجرؤ على الكلمة الصادقة فيماله علاقة بحقيقتنا لنعرف إلى أى مدى كنا متقهقرين فى ميادين الحياة ، وإلى أى حد كانت تهبط معلوماتنا بمقومات الرقى من نواحيها الأخلاقية والاجتماعية والعلمية

إننا لا نريد أن نتشاءم بعد أن خطونا خطوتنا الأولى . بل ولا نريد أن ننكر أننا اليوم فى موقف المتوثب الذى يتحفز للحركة فى أقوى معانيها. ولكننا نريد أن نقول إن فيما ورثناه من تقاليد أخلاقية ، وقيم اجتماعية رواسب خليقة بالعناية والبحث ، جديرة بالعلاج الحاسم الذى يستأصل الجراثيم من مواطنها فيه ، ويطهرها بأقوى أنواع المطهرات النفاذة .

ليس بعيدا ذلك العصر الذى كنا نتبادل فيه الأدب الكاذب فى جميع مناسباتنا . . ليس بعيدا ذلك العهد الذى كنا نصانع فيه السخيف ونسمى آراءه سديدة ، ونجامل الغبى فنصفه بالذكاء ، والجاهل فنصفه بألقاب العلم ، والظالم فنضفى عليه مزايا لا تقوم بفضل ، ولا تقاس بشمائل .

كنا نجرى فى ذلك على سنن من أراد أن يربينا هذه التربية ليستفيد من ضعف أخلاقنا لسياسته ، ويربح من هواننا لكبريائه .

أما اليوم وقد انبثق فجر الحياة فى ربوع الشرق . . فأى معنى لبقاء أمثال هذه الرواسب فى دمائنا ؟

دعونا نعرضها لوهج الشمس الضاحية لنبيدها ،ونقضى على جراثيمها، ونتمتع بعدها بدم طاهر نقى لا تلوثه الشوائب .

دعونا نستشعر القوة ، ونعتمدها كأساس فى حياتنا العامة . . فلا نتخاذل أمام الحق ، ولا نهن فى مواقف الصدق ، ولا نضعف إذا دعانا داعى القوة .

إذا أشعرنا أنفسنا هذا القدر من المزايا الحية استطعنا أن يواجه بعضنا بعضا بحقائقنا ، وأن نتبادل الصدق فى جميع ما نتعامل ،وأن نجرؤ على الصراحة فى أدق المواقف المحرجة . .

استطعنا أن نفى صاحب الحق حقه . . فلا نعين الضعيف ، أو نستغل عجزه، ولا نجامل القوى أو نداهن مركزه .

تلك خلال الأمم التى صدقت نواياها للعمل المنتج فى الحياة ، ووطدت العزم على بلوغ أهدافها البعيدة فيها فإذا راق لنا أن نتابعها . .

فدعونا نمش ! !

لنعدهم .. اعداداً فنيا !

دعونا نمش فى جمال وتنسيق وفن .. كما نمشى فى علم ، وقوة ، وعقل !!

إننا إذا خدمنا نهضتنا كما ـ نؤمل ـ بعلومنا ، وعقولنا ، وقوتنا فليس من حقنا أن نهمل فى هذه الخدمة نواحى الفن ، والتنسيق والجمال .

إن الحياة فى عهودِ ما قبل التاريخ عرفت الفن واستهواها الجمال قبل أن تعرف العقل وتسترشده فى مجالى الإنتاج والعمل . . فقد لنت لها زينة السماء ، وإشعاعات الكواكب ، وانتشار الغيوم ، وسطوع البدر ، ووهج الشمس ... لذ لها كل ذلك واستهواها جماله قبل أن يسترعى انتباهها كشف ما فيها من حقائق ، وتفسير ما يحيطها من علوم .

والإنسان بفطرته فنان قبل أن يكون عالما يستعذب زقزقة العصافير ، وهديل الحمام ، وخرير المياه ، وأناقة الروض وجمال الزهور . . قبل أن يستعذب البحث فى كنهها ، والتعمق فى أسرارها .

ولا يقولن قائل إن هواية الفن ترف لا لزوم له فى أمة تتوثب للأعمال الجدية ، وإن استرواح الجمال كماليات يتشاغل بها الفارغون .. فذلك ضيق فى الذهن لا يتسع لدراسة الحقائق فى إمعان ودقة .

إن الأمة التى ينشأ أفرادها من طفولتهم على تذوق الفن فى غرفة رشيقة ، وخزانة مرتبة ، وبيت جميل ، وشارع نظيف ، ومدرسة منسقه

وحديقة يفوح عبيرها ، وميادين تأخذ العين مناظرها سوف تعرف في مستقبل أيامها كيف تتذوق الحقائق ، وتفهم دقائقها ، وتعرف كيف تهذب طبائعها وترقق مشاعرها ! !

وإن الأمة التي تعلم أبناءها كيف يتذوقون الفن في قصيدة عامرة ، ولوحة ناطقة ، وجلسة رائعة ، ونزهة شائقة . . تستطيع أن تهيئهم للسمو الروحي ، والميزة العقلية . . وتربي فيهم ملكة الفهم والنقد .

إذا أعددنا أبناءنا إعدادا فنيا . . هذبنا طباعهم ، وهيأناهم لتعشق الجمال في أعلى صوره ، وعلمناهم كيف يحيون حياة لها سعادتها ولذتها .

كان النبي صلى الله عليه وسلم جميلا عندما أحب الجمال ، وفرض النظافة والوضوء ، وسن السواك والتطيب والاكتحال ، وشدد النكير على النجاسات بأنواعها ، وأوصى بالزينة عند كل مسجد ، وعين الأعياد ، وقرر لها الثياب النظيفة البيضاء ! !

ولا تعنى أمة بأمثال هذه الخلال إلا إذا رقت مشاعرها ، ودقت أحاسيسها ، واستعذبت الجمال الفني في كل رشيق منسق ، واستوحت الحب السامي من مظاهر الحياة الرفيعة .

تعالوا ندرس حياة الأجلاف من أصحاب العواطف الغليظة والمشاعر الجامدة ، والأذهان الضيقة . . لنعرف لون الحياة النابضة في أفئدتهم ونستقصي مدى تقاعسهم في فن العيش السعيد .

إننا سوف لا نظفر بنهم بفكرة عالية تتعشق الخير ، وطبع مهذب يأنس بالتلطف ، ومشاعر رقيقة تميل لود الناس وحبهم ، وتعطف على أمانيهم .. ذلك لأن الكبد الغليظة لا تنبض بعطف ، ولا تهفو إلى خير على عكس الفنان الذى دقت أحاسيسه ، واستهوى الفن مشاعره فنشأ مفتونا بالجمال والخير .

ورجال العدل ، وأصحاب البر بالناس ، والذين يؤثرون على أنفسهم ، والمشفقون فى المصائب ، والمحسنون .. كل أولئك دقت أحاسيسهم فجاشت بالبر ، وفاضت بأعلى ما تفيض به نفس الفنان العالية ، وروحه السامية .

إننا نقرأ اليوم فى الصحف السيارة أخبار المتسابقين فى أعمال الخير ، والمتنافسين فى شتى أنواعه ، والمتبرعين بأملاكهم وأموالهم للمصالح العامة فيأخذنا العجب من تسابقهم ، وتنافسهم فى ميادين لا نقوى على مجاراتهم فيها ... ولكن عجبنا يبطل إذا علمنا أن طباعهم تهذبت من نعومة أظفارهم كما رقت أحاسيسهم وسمت أغراضهم ، وفاضت نفوسهم بأجمل ما تفيض به النفوس العالية .

فى العالم اليوم .. من يتبرع بدمه للمستشفيات . وفيهم من يتبرع بأحد أعضائه ، أو قطعة من جسمه برآ بالمصابين ، ورحمة بالضعفاء والعاجزين ، فأى فؤاد هذا الذى هفا إلى مثل هذا الخير ؟ ؟ لا ريب أنه الفؤاد الحساس فؤاد الفنان بما فى الفن من سمو وجمال .

وفى العالم . . قصص فيها الكثير من التضحية . . فمنهم من ضحى بنفسه فى طوربيد ينسفه ، أو صقيع يبدده ، أو مجاهل تبتلعه ، أو شدائد تقضى عليه . . فى سبيل الخدمة العامة ـ فأى شعور هذا الذى دفعه إلى هذه المخاطر ، وحبب إليه هذه المجازفات ؟ . . لا ريب أنه الشعور العالى شعور الفنان الذى ينبض قلبه بالخير والجمال .

فدعونا نربى أولادنا على تذوق الجمال ، ونهذب طباعهم لتصفو أرواحهم وتدق أحاسيسهم .

دعونا نفتح عيونهم على بيوت نظيفة وغرف رشيقة ، وأثاث جميل ، ومناظر أخاذة ومظاهر من كل لون جذاب .

دعونا نفتح عيونهم على شوارع نظيفة لامعة ، وميادين متسعة ، ومدارس رشيقة منظمة ، وحدائق ذكية فواحة .

دعونا نشعرهم بالجمال على أى حال ، وفى كل حال لنغرس فيهم حبه ، ونعلمهم كيف يهفون إليه مهما تنوعت صوره ، واختلفت ألوانه .. فالجمال جماع الخلال العالية . . من مروءة ، وشرف . . إلى شهامة وعدل . . إلى حب ، وإيثار .

دعونا نفهم أنه لا يكفى أن نتزود لنهضتنا الجديدة بسلاح المعرفة التى تثقف أذهاننا ، وتمرن ملكاتنا . . دون أن نعنى بأرواحنا فنعلمها كيف تصفو ، وتحس ، وتتألم ، وتهفو إلى الخير .

دعونا نهذب طباعنا ، ونصقل عواطفنا ، ونرهف أحاسيسنا لنشعر بشعور الغير ، ونحس بإحساسه ، ونتودد إليه فى عطف وإخلاص .

دعونا نتعلم كيف نحب الخير للخير ، ونتعشق الإحسان للإحسان ، ونصبو إلى الطيبات لا لما نرجو فى عواقبها ، أو نخشى من مغبتها .. ولكن صبوة للطيب فى ذاته . . وبذلك نعد أنفسنا خير إعداد ظفر به غيرنا . . ونهيء أمتنا لأسمى خلال تشرفها أمام الله والتاريخ .

فلا نرتجل أشياءنا كما يتفق

دعونا نمش فى نظام مقدر . . بحثت مقدماته ، ودرست أبوابه ، وعرفت نتائجه فى حدود محكمة ، وتفصيل دقيق .

إن صانع السيارة لم يكتف بما أدرك فى حركة دواليبها . . فاندفع يدلج بها فى الأرض دون أن يدرس ما يترتب على اندفاعها من أخطار . بل ألزم نفسه البحث فى كل التفاصيل المحتملة ليضمن لها الأمان ، ويحدد خطاها فى ترتيب دقيق وصمامات محكمة .

وعندما اتسعت فكرتها لديه . . اتسع فى دراستها . . فجعل لها حركة تضغطها فى تؤدة ، وأخرى تدفعها فى خفة ، وغيرها لغير ذلك مما تستدعيه المفاجآت ، وتستلزمه المناسبات .

هذا النظام المقدر وليد الدراسات الدقيقة ، استطاع أن يمنح أداتنا هذه الخطيرة — التى نسميها السيارة — ميزة لا تقاس بها ميزة ، وأعطاها من الأهمية فى حياتنا ما لا تعدل به أهمية أخرى .. ولم يتيسر له كل ذلك لو لم يعن بدراسة الفكرة فى نظام ودقة ، ويبحث فى تفاصيلها كل احتمال مفاجىء .

هذا مثل بسيط اخترناه لما نحن بصدده ، لاحتكاكه بحياتنا اليومية ، ويمكنك إذا شئت أن تقيس عليه كل أداة لها قيمتها .. من الطائرة فى الجو ، والباخرة فى البحر إلى مصباح الكهرباء فى البيت ، وآلة الصناعة فى المعمل !!

كل هذه الأدوات نظم ترتيبها ، ودققت تفاصيلها ، وأحكمت صماماتها ليستفيد الإنسان بمنافعها دون أن يتعرض لما تنطوى عليه من أخطار هائلة .

كذلك شأن الحياة فى الأرض . . جميع مآتينا معرضة لألوان من الكوارث لا آخر لنهايتها إذا لم تنظم فى نسق دقيق . تدرس حقائقه فى إمعان وترتب نتائجه فى إحكام .

حتى إشباع جوعتك بما يغذى جسمك لا يمكن أن تسميه غذاء إلا إذا نسقته فى أداء منظم . . وإلا فهو الخطر المحقق . وحتى ممارسة أهوائك مهما كانت بريئة لا يمكن أن تتمتع ببراءتها إلا إذا نظمت فى ترتيب محكم . وإلا فهى الوبال كل الوبال .

وإذا انتقلت من هذه الآماد المحدودة فى حياتك إلى آفاق أوسع وجدت أن الحياة فى مختلف أطوارها ومتعدد أجوائها لا تعدو هذه القاعدة بحال . . فبقدر ما تعنى بتنظيم أمورك فيها وتنسيق أطرافها فى ترتيب محكم تظفر بأحلى أمانيك . وبقدر ما تسلمها إلى الفوضى وتترك نفسك تمضى فى خطاها سبهللا لا يحدها ترتيب ولا يسددها إحكام ، بقدر ما تتعرض لأوخم النتائج .

كدت أن أضرب مثلا فى هذا بشخصية كبيرة معروفة بين رجالاتنا بالتزام الدقة فى جميع مقدراتها ، وهى شخصية لا أريد أن أسميها لأننى لا أخدم الأشخاص فيما أبحث بقدر ما أخدم البحث للبحث نفسه ، وأكبر ظنى بعد هذا أو قبله أنه ليس فى بلادنا من يجهل هذه الشخصية الفذة ، فقد ألزم

صاحبها نفسه قاعدة التنظيم المنسق . . فهو لا يضع قدمه فى خطوة حتى يتدبر شأنها ، ويدرس تفصيلاتهـا ، ويرتب لـكل تفصيل فيها بابا ولـكل باب فيها درسا .

امتحنته الأيام بأقسى ما يمتحن به عظيم . . ولـــكن كان يأبى إلا أن يكون الظافر فى كل امتحان . . ذلك لأنه ما اســـتعجل الأشياء قط ، ولا أباحها الفرصــة لتمضى فى جداولها سبهللا كما اتفق . . بل كان يحسن تقدير ما يواجه ويعرف كيف يدرس تفصيلاته ، ويرتب أبوابه ، وينظم لـكل باب فـكرة . . فى تنسيق محكم دقيق .

اصطنع هذا فى خصوصيات بيتـه ، وعموميات مركزه الاجتماعى والرسمى . . فعاش حياته ظافرا بأرقى ما يواتى الظفر ، ناجحا بأسـعد ما يهب النجاح .

دعونا نقارن هذا بآلاف غـيره من الفوضويين الذين لا يدينون بنظام ، ولا يخضعون لترتيب ولا يعنون فى حياتهم إلا بمـا يتفق دون أن يدرسوا ما يخطون ، أو يتدبروا ما يفعلون فى روية وإحكام .

إن مثل هذه المقارنة ترسم لنا الفرق الواضح بين حياة هانئة سعيدة ، وأخرى مرتبكة تتقاذفها الأنواء وتعصف بها الأعاصير .

وحياة الأمم فى جميع أدوار التاريخ لا تختلف عن حياة الأفراد فى هذا الصدد فهى ظافرة سعيدة هانئة ما تدبرت شؤونها ، ودرست مقدارتها ،

خطوة لخطوة ، ونسقت أعمالها فى أنظمة محكمة ، وترتيبات عنيت ببحثها ودققت دراستها ، وصاغتها فى أساليب محبوكة لا ينالها النشاز ، ولا يعبث بها الارتباك .

وهى إلى جانب هـذا مضطربة ما استعصت على النظـام ، وتركت أمورها فوضى لا تقيدها خطط مدروسة ، ولا ترتيبات مرسومة .

لا نريد أن نقول إن الأمم المنظمة لا يشوبها زلل قط . . . لـكن مثل هذا الزلل قد لايسيئها ما تسيئها الفوضى ، وعصيان النظام . . . وأكبر ظنى أن مثل هذا الزلل قد لا يصادفها إلا منظما قابلا للدراسة والعلاج .

فدعونا ننظم أمورنا كـكل أمـة لا تجهل واجبها ، وتعرف ما عليها من تبعات لتحيا محترمة بين أمثالها .

دعونا ننظم شؤوننا فى التجارة فلا يضطرب استيرادنا أو تصديرنا .. نستوحى أسواقنا ، ونعرف حاجتها إلى كل لون وصنف . . فلا نغمرها بالفائض المتزاحم ، ولا نعجز دون كفايتها فنحرمها ضرورياتها اللازمة .

دعونا ننظم صناعتنا فلا نبيح لهـا أن تهاجم فى عقر دارها ، وأن تزاحمها واردات الأجنبى بدون قيـد فتشل حركتها ، وتعطل نموها . . لا بد لهـا من تنظيم يحميها ، ويشجع خطاها فى حدود مرسومة ، وكادر مبوب ! !

دعونا ننظم شركاتنا فنوزع خطواتها فى ترتيب محكم، ونضبط قيودها وسجلاتها على أصول دقيقة لا يشوبها تشويش . . ليأمن المساهمون عواقب الفشل ، ويطمئنوا إلى حقوقهم فيها .

دعونا ننظم أمورنا فى البيت ، والمدرسة ، والشارع ، والدكان . . لنألف النظام فى جميع ما نتناول من أعمال ونعرف كيف نرتب أوقاتنا فى دقة وإحكام فى أفكارنا فلا نرتجلها كما يتفق ، ولا نرسم تصميما حتى نشبعه فحصا ، ونوسعه بحثا ودراسة .

يظن بعض الجاحدين أنه ليس فى طبيعة الشرقيين ما يساعد على تقدمهم فى مجالى الحياة . وليس فى مثل هذا الهراء ما يستحق التفنيد والرد ، فللشرقى مزاياه المكتسبة من بيئته وطبيعة أرضه ، وللغربى مثلها . . وفى كلا الفريقين من الاستعداد ما يؤهله للحياة الصحيحة إذا عقد العزم عليها .

إذا كان الغربيون قد عنوا قبلنا بتنظيم مقدراتهم فى أوضاع محكمة فلا يكلفنا أن نحذو حذوهم إلا أن نعنى بتنشئة أجيالنا الجديدة على نسق يحبب إليهم النظام فى مختلف أنواعه ، ويعلمهم كيف يبحثون أوضاعهم ، ويدرسون تفاصيلها ، ويحكمون ترتيبها فى روية ودقة لا يشوبها ارتجال .

إننا بذلك نستطيع أن نثبت أن أهليتنا للنجاح فى الحياة لا تقل بحال عن أهلية كل متمدن فى الأرض .

فدعونا نمش . .

فلا نفرض مالا يساير طبائع البشر

لا نسمى نظاميين ونحن نقرر مقدراتنا فى دساتير مفصلة إلا إذا احترمنا ما قررنا ، وقدرنا قيمة ما نظمنا . . فى نفوس عالية تفهم الواجب ، وتعرف قيمته بين الفروض ! !

يذكرون عن بعض البلاد المتمدنة أن صاحب السيارة قد يخطىء فى غيبة الجندى المكلف بالمرور ، وقد يصدم مصباحا فى الشارع ، أو يخالف أنظمة المرور بأى شكل من الأشكال . فيأبى إلا أن يترك عنوانه للجندى ليستوفى رجال النظام منه جزاء ما أخطأ حسب ما قرره النظام .

ويذكرون أن أحد كبار الدولة فى أمة من الأمم الراقية عند ما أعلنه جندى المرور أن سرعة سيارته فى الشارع تخطت الرقم المقرر ، وأن عليه أن يصحبه فى سيارته إلى أقرب مركز للبوليس أجاب طلب الجندى فى احترام ، ومضى فى صحبته إلى مركز البوليس ، فلما عرفه الضابط الموكل بالمركز استحى من مقامه المرموق فى الأمة ، وأراد أن يستسمحه ، فقال الكبير : « إن خضوعى لأنظمة بلادى أمر لازم ، ولا يجوز أن تستسمحنى فيه . . فتفضل بالجلوس إلى مكتبك مشكورا ، وامض فى تنفيذ ما أنت مأمور به للنظام » .

بمثل هذه الروح النظامية يتعامل المهذبون فى كل أقطار الأرض الراقية ، وبمثل هذا الأسلوب يتأدب أهل المراكز الرفيعة فى بلاد المتمدنين.

ولكننا لا يجب أن نغفل أن أنظمتهم نفسها تعاون على يسر تنفيذها، وتساعد على سهولة تطبيقها . . ذلك لأنها لم تشرع إلا بعد أن درستها مئات الأفكار ، وعرضتها لمئات التجارب ، فاستصفت من قواعدها ما يثبت أمام الامتحان ، واستبعدت منها مالا يساير طبائع البشر ، ولا يطابق استعدادهم .

وكثيرا ما يراعى المشرعون ألا يتيحوا للنظام أن يستهين بكرامة المخالفين ، أو يذل عزتهم . . فيستثيرون عنادهم بما يشرعون ، ويعلمونهم عصيانه . . بل يحاولون تيسيره ما استطاعوا ، ليساعدوا على احترامه ، ويعينوا على طاعة بنوده كما فعل القرآن فى عهد نزوله .

وأكثر هذه الأنظمة الراقية لا تشتط فيما تجازى ، ولا تبالغ فيما تعاقب . . بل يكفيها ردع المخالفين فى أساليب تغريهم بمسايرتها ، والتحمس لتطبيقها . . فإذا استطاع الشرقيون أن يهيئوا لهم نظما تستوعب مناحى حياتهم فى جميع ألوانها ، وأن يدرسوا بنود هذه النظم دراسة راقية على أحدث ما أنتجته علوم النفس ، وإذا استطاعوا أن يستوحوا فيما ينظمون جميع الملابسات الشخصية ، والظروف الطبيعية . . لتنتهى نظمهم إلى مستوى لا يتنافى مع تجارب الأمة ، ومرانها الطويل ، وإذا استطاعوا أن يتوخوا فيما ينظمون حقائق العدل الصحيحة ، ومعانى الرأفة والرحمة . . فإنهم يهيئون بذلك لاحترام النظم ، ويعلمون الناس فى بلادهم كيف يقدسونها ، ويبجلون بنودها .

ويكمل تقديس الأنظمة كل الكمال عند ما نعنى فى بيوتنا ومدارسنا بصقل أرواحنا ، وتهذيبها تهذيبا عاليا يميز الحقائق ، ويعطيها قدرها ويسمو بنا عن التدنى إلى منازل الأجلاف الذين يتنكرون للواجبات ، ولا يمنحونها حقوقها عندهم ويزوغون أمام الحقائق كما تزوغ الثعالب فى مواطن الجد .

ويذكرنى تقديس الواجب فى هذا السياق بما ينقله السائحون عن بعض البلاد الراقية . . فهم يذكرون أن منها من استطاع أن يستغنى عن موزعى الصحف ، وباعة الكتب ، (وكمسارية) التذاكر . . لأنهم قنعوا بترفع جمهورهم الراقى عن الاختلاس، وجربوا عنايته بالأخلاق العالية ، وحفاوته بالواجبات المفروضة . . فاتكلوا على ما تخلق ، وعرضوا بضائعهم عليه دون أن يراقبها موظف . . تركوا له صندوق الحسابات يقذف بالنقود من فجوته ، وأطلقوا يده فى البضاعة يأخذ حقوقه منها دون أن يستغل أو يبيح لنفسه الاختلاس أو السرقة .

ويذكرون أن تجارب هؤلاء الباعة طمأنهم على حقوقهم . . فهم يحصون حصالتهم فى كل مساء ، ويقابلونها بقيمة ما عرضوا من البضائع فلا يجدون فرقا يدل على السرقة أو الاختلاس .

لا أدرى أية نقاوة بلغت بهذه الضمائر التى باتت تحسب نفسها فى هذه الدقة التى لا تبلغ إليها دقة المراقبين مهما برعوا فى مراقبتهم .

إننا فى بلاد الشرق لا نستطيع أن نحلم بمثل هذه النتائج رغم يقظتنا فى تجنيد المفتشين ، والمراقبين ، والمدققين والمتجسسين فكيف ظفر بها أناس ألغوا الرقابة والحراسة ؟ ؟

أتكون علتنا فيما نجند من حراس ، ومراقبين ومفتشين . . فنكون بذلك قد تداوينا بالتى هى الداء ، أم أننا بلغنا من براعة الحيلة حداً لا يدانى ؟

الواقع أنهم عنوا بإحياء الضمائر فى بلادهم فنشأ ناشئهم وهو يحس بأن كرامته أرفع من أن تتدنى إلى الحيل والغش ، وعنوا ببث الثقة فى النفوس فجبل الرجل على فضائل لا يهاود فيها ، ويسمو بأخلاقه أن يراقبه عليها غير ضميره النقى الصافى .

دعك من ضمير السياسة التى نشاهد ختلها ، ونسمع من أحاديث زيفها مالا يتفق مع سمو التربية . . دعك من هذا فإن للسياسيين فى غالبية تلك الأمم فلسفة لها لونها الخاص . . إنهم يؤمنون بمنفعة بلادهم إيماناً يجرئهم على الكفر بأكثر المبادىء الإنسانية العالية . . . وهم فى سبيل مصالحها لا يتورعون عن نسيان معانى الأخلاق .

وإنى لا أذهب كثيراً مذهب من يلحاهم على ما يفعلون . . لأن الخطأ فى رأيى فى مثل هذه المواطن هو خطأ الضعيف الذى أغراهم بنفسه كما تغرى بغاث الطير بأكلها . . ولو تنسرت تنسر البواشق والصقور لفرضت احترامها على الصائدين .

لا نريد أن نحفل كثيرا بأخلاق النفعيين من ساسة الأمم فى أوربا.. فقد أعدوا فى بلادهم ليكونوا جزارين ، والجزار فى كل بيئة لا ينسى وظائفه الطبيعية مهما سمت به بيئته ، ومعتنقو مذهب حرق الجثث لا تدمع أعينهم مهما تهذبت طباعهم أو رقت أحاسيسهم ! !

أقول إننا لا نريد أن نحفل كثيرا فى بحثنا هذا إلا بالأوساط الشعبية التى تهذبت ضمائرها ، وسمت بها أخلاقها حتى استطاعت أن تجرد من نفوسها رقيبا عليها ، واستكبرت أن تساق بالعصا وتحاسب عن طريق الأوامر والنواهى .

إننا فى الشرق من أحوج الناس إلى التربية الصحيحة التى تسمو بنفوسنا إلى أرفع مستوى ، وتحيي ضمائرنا حياة نحس فيها بأدق معانى المروءة والشرف .

وإننا ـ جماعة المسلمين فى كل بلد من هذا الشرق الواسع ـ مسؤولون أمام مبادئ سيد المرسلين بأشد ما يسأل المكلف . . . فقد بعث فينا ليتمم مكارم الأخلاق ، وبعث فينا لنكون خير أمة أخرجت للناس ، وبعث فينا لتكون لنا بعد الله ورسوله العزة فى الأرض .

وقد ترك لنا من أخبار سيرته ، وقصص شمائله ما لو استقصيناه لاستطعنا أن نباهى به أمام أرفع الأخلاق فى أرقى البلاد ، وأفضل الشمائل فى أسمى الأمم .

ما بالنا نسينا تراثه الممتاز ، ومبادئه التى لا يسمو إليها متمدن مهما بلغ شأوه فى التربية ، واستأنفنا النكوص على أعقابنا ، حتى هوينا إلى دركات لا تليق بنسبتنا إلى ذلك المشرع العظيم ، ولا تتفق مع العزة والسمو الذى أرادنا له ؟

إنها بلا ريب غلطة الأجيال التى ساد ظلامها أرجاء الشرق بعد أن فقدنا نبينا صلوات الله عليه ورجال صحابته من الصفوة المختارة .

وإنه إهمال الغافلين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فهل استيقظنا اليوم لنعرف الله كما يجب أن نعرفه ، ونفهم أنفسنا كما يجب أن نفهمها ؟

لا شك أن تباشير الصباح قد لمع وميضها ، وأننا منذ الليلة على الطريق . . . فخثوا ركابكم أيها القوم .

ودعونا نمشى ! !

هذا النفط ... مصدر مآسينا

فى تاريخ الإسلام السياسى مواقف دقيقة كانت لها خطورتها بالنسبة لكيانه العام . . . ونحن اليوم فى موقف جديد من مثل هذا اللون له دقته وخطورته ، التى لا تقل بحال عن خطورة أمثاله فى تاريخ الإسلام .

نحن اليوم نواجه من تكالب الأمم علينا ، وتعاونهم على استرقاقنا ، واستنزاف دمائنا مالا يجوز إغفاله بين ما أغفل من أحداث التاريخ العظيمة ، وأهوالها الفادحة .

فهل تدبرنا ـ معشر المسلمين ـ هذه الحقيقة ؟ وهل أعددنا لها مايجب أن نعده لأمثالها ؟

إن الأمم المتكالبة وجدت ميادين العمل أمامها واسعة ، فلم تتلكأ فى اختيار السبيل ! ! ووجدت الفرص لاسترقاقنا ماديا أو معنويا سانحة بين يديها فلم تتوان فى انتهازها وتلك سنة المجدودين ، العاملين لنجاحهم فيها ! !

لعل هؤلاء المتكالبين والظالمين لا يستحقون اللوم أكثر مما نستحقه ! ! إنهم لم يكونوا أكثر من أنانيين يمشون إلى أهدافهم على أشلاء غيرهم ، وليس فى هذا جديد ، فالإنسان ـ مع كل أسف ـ أنانى بطبعه ،

اتهازى بجبلته ، لا يستثنى من ذلك إلا نبى مصطفى ، أو تقى مجتبى . . . وقد قضى عهد النبوة ، وأصبحنا فى زمن لا نجد الأتقياء إلا فيما ترويه أقاصيص الكتب .

إذن فلا لوم فى الأمر إلا أن نكون نحن الملومين ! إننا استمرأنا حياة التأخر من أجيال طال عهدها ، فترك هذا أثره فى دمائنا وأفكارنا ، وهيأنا لأسوأ ما تتهيأ له الأمم من معانى الصغار والهوان .

إنه لا يزال يعيش بين ظهرانينا من بقايا عصور التأخر من يظن الفرنجة خدما يعدون وسائل العيش فى الحياة من مأكل ، وملبس ، ومركب . . ثم يقدمونه إلينا لننعم بما قدموا دون أن نتكلف فى سبيله نصبا ! !

أليس فى هذا ما يشهد على مقدار ما تركه التأخر من رواسب فى أفكارنا ؟

إنه لا يزال يعيش بيننا من يقول : « اللى يطيح من السما تستلقاه الأرض » ومن يقول : « إذا طاحت السما . . ما يلحقنى منها إلا قد راسى » .

أليس فى هذا أوضح معانى الانفرادية ! وأبلغ شواهد التفكك ؟ . . لماذا يخشى وقوع السماء مادام لا يعنيه إلا مقاس رأسه منها . . ولا علاقة له بالمجموع ؟ ولماذا يخشى وقوعها ما دامت الأرض ستتلقاه ولا علاقة له بالأرض ؟ . إنها ليست فى رأيه أرضا تابعة له ، وليس فيها ما يهمه من شؤونها ! !

هذه الانفرادية ، وهذا التفكك مصدر مآسينا فى الحياة . . وقد ترك رواسبه فى دمائنا، وسوف لايعوزك الدليل عليه ، لأنك تستطيع أن تلمسه واضحا فى بقايا عصورنا السابقة ممن لا يزالون أحياء بين ظهرانينا !

فأى لوم بعد هذا يستحقه الأجنبى الذى وجد سبيله ممهدا على أشلاء أمم تفككت عناصرها ، وذاب كيانها ، وخمدت مشاعرها ، وأصبح الفرد فيها لا يحس بالحياة إلا فى حدوده الضيقة ، ولا يعنى من أرضه إلا بقدر مايسعه من مساحتها ، ولا يمد رجله إلى أكثر من فراشه ، ولا تتطلع عيناه إلى أبعد مما يمتد بصره ، ولا تبعد أهدافه إلى أبعد من نعيمه الذى ييسره له الفرنجى الخادم ؟

تركنا من نسميهم فرنجة يخدموننا فى طعامنا ، فأصبحت أكثر بلادنا فى الشرق الأوسط عالة على ما يطعمون ، ويخدموننا فى ملبسنا فأصبحت أغلبية بلادنا فى الشرق الأوسط لا تملك الإبرة إلا إذا قدمها إليها هذا الفرنجى .

تركنا من نسميهم فرنجة يخدموننا فى كل قطعة من أثاث بيوتنا، وأوانيها وآلات دكاكيننا ، ومصانعنا — إذا كانت لدينا مصانع ذات قيمة — فلا نملك لأنفسنا قطرة الحبر ، أو ريشة القلم ، أو قطعة الورق ، أو عود الكبريت، إلا ماتصدق به علينا هؤلاء الذين أسميناهم خدما !! . .حتى بيوت الصناعة التى قد نجرؤ على المباهاة بها لا نملك من أدواتها مايساعدنا على العمل

فيها . . إلا إذا تفضل أولئك الخدم فأتحفونا به ، وقبضـوا أثمانه فاحشة من دمائنا .

ما أروع هؤلاء الخدم ، وما أعجب أفضالهم علينا ، وما أشقانا نحن جماعة الأسياد بسيادتنا التى تتمتع بهذا الضعف المهين ، والحاجة المريرة !!

دعونا يا قوم نفهم الحقائق على وجوهها الصحيحة ، وكفانا ما فرطنا فى جنب الله ، وحقوق بلادنا . دعونا نفهم أن موقفنا اليوم أشد ما يكون حاجة إلى التعاون المشترك ، والتعاضد المحكم ، وجمع الصفوف على العمل المنتج الذى يثبت وجودنا ، ويشعرنا بحقيقة موقفنا من الأمم الطالعة ، المتكالبة على تمزيقنا ، وامتصاص دمائنا .

إن ساستنا يشعرون اليوم بالأرض التى تزلزل تحت أقدامنا ، والعاديات التى تأخذ منافذ الأرض علينا .. فيتيقظون من هول الفواجع ، ويبادرون إلى أجراس الخطر .. فيهزونها فى قوة المستميت .

دعونا نستجيب إلى ما ينادون . . دعونا نطرد النوم من أجفاننا والعناكب عن عقولنا .. دعونا ندب على أقدامنا بأقوى ما تدب الكواسر بعد طول احتباس .. دعونا نزأر بأصواتنا كأقوى ما تزأر الليوث : لبيكم قادتنا . . لبيكم ! !

دعونا ندرس كل مقومات التعاون بيننا لنتبادل منافعها فى إخلاص وعدل . .

فى أقطارنا ما ينتج الحديد ، وفيها ما ينتج المعادن النفيسة ، وفيها

ما ينتج الذهب الأسود والأحمر . . كما أن فيها ما ينتج الأخشاب، والمطاط والأقطان، والحرائر، والأصواف، وأكثر المواد المستقطرة ، والأنواع المستحضرة ، كما أن فيها من اتسعت ثقافته ، وطالت تجاربه ، وفيها من كثر عدده . . فإذا تبادلت شعوبنا كل هذه المقومات فى تدبير محكم ، وإخلاص صحيح . . استطعنا أن نمهد ليقظة جديدة موحدة الأهداف واضحة المقاصد .

إن جامعتنا لا يجمعها الدين فقط ، ولا الدين واللغة . . إنما يجمعها بعد هذين ما لا يقل شأنا عنهما ، وهو اشتراكنا فى الآلام .

إن المظلوم يا قومى أخو المظلوم ، وخدينه ، وحبيبه . وليس فى نظام الحياة آصرة تجمع بين الناس أشد من آصرة الألم . . فإذا أضيف إلى هذا الألم المشترك جامع الدين ، وجامع اللغة ، فقد استوت لأقطارنا على تعدد مآربها رابطة . . فما بالنا ننسى حقائق هذه المعانى ، ونسدر فى غفلتنا مع الجاهلين ؟

إن فرصتنا اليوم بعد أن تيقظ ساستنا لواجبهم نحونا لا تعادلها فرصة وإن ما قاسينا من لأواء تنازعنا طوال أجيالنا المظلمة لا تضاهيه تجربة . فدعونا ننتفع بماجربنا . . ودعونا نقدر هذا الصراخ الدائب فنلم شعثنا ، ونمضى على صوت الصارخين .

إن أخشى ما يخشاه خصومنا فى أطراف الأرض أن نتجمع ؛ لأنهم يعلمون أن ظفرهم بنا رهين شتاتنا ، وأن آخر عهدنا بالهوان أمامهم يوم نقوى على لم الشعث وتوحيد الصفوف فى نيات صادقة وضمائر نقية ، واحترام متبادل ! ! لا يستغل فيه بعضنا البعض .

وما أروع الحكيم الذى روى أسطورة الأثوار الثلاثة وقال فيها : إن الأسد عندما صادفهم حاول أن يفتك بهم أو ببعضهم فلم يسعفه النجاح حتى استطاع أن يفرق بينهم .

يقول الحكيم فى قصتهم : إن الأسد بدأ اتصاله بالثور الأسود والأحمر وقال إن لونكما لا يبعد كثيرا عن لونى ، ولهذا فإنى لا أخشى أن يعرف الصياد جنتنا لولا زميلكما الأبيض الذى يفضحنا بلونه ، فلو سمحتم لى بالقضاء عليه لأمنت وإيا كم غائلة العدوان ! !

فلما اقتنع الثوران برأى الأسد سمحا له أن يفتك بزميلهما .. فكانت الضربة الأولى نحو كيان الأثوار فى الأجمة ، وجاءت الضربة الثانية عند ما مال الأسد على الثور الأسود وحده ، وأقنعه بأنه لا يزال يخشى الصيادين لأن لون زميله الأحمر فاضح ، يلفت أنظارهم . فقنع الثور بما ذكر الأسد ، وأباح له أن يفتك بزميله ليعيش بعد ذلك مع الأسد آمنا .

وما قضى الأسد على الثور الثانى حتى أيقن أن الثور الثالث قد بات رهين رحمته ، وأنه لا يقوى بعد زملائه على مقاومته فالتفت إليه يستأذنه فى قتله فقال الثور : أجل . وثق أننى لم أقتل اليوم فقط . بل قتلت يوم قتل الثور الأول ! !

إنها أسطورة تحمل كل معانى الجد الصائبة ، وإنها قصة تمثل أدق ما يمثله الواقع . فهل نتنازع بعد اليوم يا قومنا ؟ وهل نبيح للمغتالين أن يغتالوا ضحاياهم منا على مرأى ومسمع من أبصارنا ؟

أم نحن منذ اليوم جادون ؟ لا نبيح للعبث أن يتخلل صفوفنا ، وللانقسام أن يتطرق إلى جامعتنا ؟

دعونا نؤكد هذا بشواهده الواضحة . .

وأخيرا . . دعونا نمشى ! !

إنه سيترك البلاد لأصحابها

دعونا نمشى فى نشاط .. فحاجتنا إلى النشاط فى أفكارنا ، وأجسامنا، وأعمالنا لا تقاس بها حاجة فى أكثر مناحى حياتنا الجديدة .

أترى هذا الشاب القادم على كثب منك ؟ .. أترى أقدامه كيف تزحف فى تراخ كما تزحف أقدام المسن المرهق ؟ أترى قامته المنحنية ورأسه المطرق وهامته المتخاذلة ؟

إنه الفتور بمعانيه الواضحة ، وإنه الانحلال الصحى الذى لا يتفق مع سن الفتوة وتطور الشباب ، وإنه الانحلال الاجتماعى الذى لا يتفق مع أحوال الأمم التى تنوى مسايرة الحياة ، والاندفاع مع صفوفها الأولى .

إن الشباب الناهض يمتاز فى الحياة بما يتدفق فى شرايينه من دماء قوية تبدو آثارها واضحة فى كيانه النشيط ، وقامته المنتصبة ، ورأسه المرفوعة عاليا ، وخطواته الناطقة بعزم الشباب وقوته .

إنهم يعنون فى بلاد العالم المتمدن بمظاهر الفتوة . التى توحى إلى نفس الشباب معانى العزم وتدربه على مواجهة الصعاب فى هامة عالية ، وهمة شامخة ، ودم فوار !

أما هذا الخطو المتخاذل فى أعصاب محلولة ، وكيان متهالك ، وحركات متهافتة ، فذلك لون من ألوان الضعف يسىء إلى معنوية الشباب ، ويعطى عنه فكرة لا تتفق مع فتوته القوية ، وعزمه الناطق ! !

فدعونا ننشط فى أجسامنا ليثبت جماعة الشباب فينا حيويتهم الدافقة ، واستعدادهم الحى لمزاحمة أمثالهم فى معترك الحياة الداوى ! !

ودعونا إلى جانب هذا ننشط فى أعمالنا . . فقد مضت العهود التى كان يكفينا فيها الإنتاج السنوى من مواسم الحج لنعبث بعدها لاهين بالنزهات ، والرحلات بين الضواحى والبساتين .. ننفق عن سعة ، ونقضى أيامنا ، ولياليناً لاعبين فى براءة الأطفال ، وسذاجتهم ! !

مضت العهود التى كان مبلغ همنا فيها أن نستعطى المحسنين من أثرياء الحجاج ، أو نحتال لنظفر باسم الكعبة والحرم على أكبر قسط من الأرباح التى تعين بلادنا على شراء معظم ضرورياتها من الأسواق الخارجية . . وحلت محلها عهود تفتحت فيها أمامنا الآفاق ، وأصبحنا ندرك أن من العار أن نظل مستوردين ؛ وأن نبذل مياه وجوهنا فى ميادين العمل الرخيص . . لنجمع أوفر ما يمكن جمعه من الأموال ، ونقدمه صاغرين إلى البلد المصدر الذى يمنحنا ضروريات العيش ، ولوازم الحياة ، وييسر لنا أنواع الترف ، وأنواع العبث ويساعدنا على قضاء أيامنا بعد المواسم فى مرح الأطفال ولعبهم ! !

الاحتمالات لا تؤدى أمام عقله إلى نجاح مضمون .. لا لنقصان فى الجرأة عنده فقط ، بل لأن خياله لا يبعد إلى أكثر مما يقع عليه نظره .

إن أمامه فى بيئته المحدودة عشرات، من أنواع الصناعات ألف رؤيتها ، وفهم مدى أرباحها ، وليس فيها مايغريه بمزاولة واحدة منها ، لأن المشاهد من نتائجها لا يغرى باقتحامها فماذا يصنع ؟ - إنه سيترك (البلاوى) لأصحابها ويقنع بانزوائه حتى تصادفه مناسبة ترضيه .

هو ذا خمود الذهن الذى نعانيه فى مقدراتنا .. ولو دربنا عقولنا على النشاط ، وعلمناها كيف تبعد فى الخيال لاستطاع المفكر منا أن يتخطى بخياله جميع ما عرف فى بيئته من صناعات ، وأبى إلا أن يبتكر لنفسه جديدا لم تتناوله الأيدى فى بلاده بعد ! !

يستطيع العقل النشيط أن يخترع لنفسه فنا صناعيا لم تتناوله الأيدى .. وأمامه فى ذلك ألوان لا يحصيها عدد ، لا تزال شائعة فى مختلف أقطار العالم المتمدن ، لا تكلفه مزاولتها إلا أن ينشط فكره فيتبعها فى مظانها من أركان الأرض ، ويدرس حقائقها فى إمعان وتبصر ، أو يقاول بعض رجالها لينشئوا أركانها حيث يريد .

لا يعجزنا أمام هذه المحاولات إلا أن نعطيها حقوقها من العناية ، ونوليها تفكيرا نشيطا لا يعثر خياله فيما ورثنا من رواسب الأجيال الماضية ! !

إننى لا أريد أن أطالب فى خطواتنا الجديدة بمخترعات لم يهتد إليها عقل البشر إلى اليوم لنسجلها بأسمائنا .. فتلك وثبة أخشى أن تكون أوسع مما تبلغه جهودنا فى حركتنا الجديدة اليوم . . وذلك مدى لا ننكر أنه فى حاجة إلى وقت أطول مما مشينا فى نهضتنا . . فلنمرن أنفسنا على مزاولة ما سبقتنا إليه المصانع فى العالم المتمدن كتوطئة لتدريب عقولنا على العمل ، وتمهيدا لتثقيفها صناعيا . . لتقوى فى أحد الأيام القريبة على الاستنتاج ، وتجد من كفاءتها ما يؤهلها للاستقلال ، وابتكار الجديد فى ميادين العمل الواسعة .

إذن فنحن فى حاجة إلى تنشيط عقولنا ، كما نحن فى حاجة إلى النشاط فى أعمالنا وأجسامنا لنثبت أهليتنا للعيش فى هذا المعترك الصاخب فى أقطار الأرض . . فاحزموا أمركم يا قوم . .

ودعونا نمشى ! !

الفهـــــرس

كتب .. للمؤلف :

١ - **فكرة** : قصة الفتاة التى عاشت لآرائها الحرة في الحياة .

٢ - **فلسفة الجن** : مقارنات بين عالمنا في الأرض ومثل الجن السامية وراء المجهول

٣ - **المرشد الى الحج والزيارة** : معلومات عامة عن البلاد المقدسة وآثارها التاريخية ، وخلاصات عن مناسك الحج فيها .

٤ - **مطوفون وحجاج** : دراسات تبحث شئون المطوفين ، وتدلى بآراء جريئة في شئون مهمتهم.

٥ - **سلم القراءة العربية** : أول مؤلف وطنى وضع لتدريس القراءة العربية في مدارس البلاد السعودية ٦ اجزاء

٦ - **تاريخ مكه** : من يوم نشأتها الى العصر الحاضر يتحدث عن نواحيها السياسيه والاجتماعيه والعمرانيه .

٧ - **أبو زاهل** : قصة الجيل القديم وعرض شامل لآرائه في التعليم والتربية ونظرته العامة في الحياة .

٨ - **صحيفة السوابق** : عرض للجريمة وتحليل للظروف التى تهئ للاجرام ومدى مسئولية الجمهور عنها .

٩ - **يوميات مجنون** : بحوث في فلسفة الحياة تتناول ألوانا من غرائب المفارقات فيها كتبت على لسان مجنون .

١٠ - **دعونا نمش** : دعوة صارخة للعمل في نواحى الحياة بقوة الرجل المتوثب للنهوض فيها .

١١ - **قال وقلت : حوار بينه وبين صاحبه تتناول دروسا هامه لبعض جوانب الحياه**

١٢ - **خالتى كدرجان** : مجموعة قصص .

مطبوعات نادى الطائف الأدبي

١ – سوق عكاظ في التاريخ والأدب	إعداد لجنة الآثار التاريخية بنادى الطائف الأدبي
٢ – البحث عن ابتسامة	محمد المنصور الشقحاء
٣ – لكل مثل قصة	مناحى ضاوى القثامى
٤ – شبه الجزيرة العربية تهدى الحكمة للعالم (محاضرات)	حمد الزيد
٥ – مسكينة	سعد الثوعى الغامدى
٦ – رحلة العمر	على حسين الفيفى
٧ – هل للشعر مكان في القرن العشرين	د. غازي القصيبي
٨ – خطرات في الأدب والفلسفة	حمد الزيد
٩ – فلسفة السلام	هشام ناظر
١٠ – معـــاناة	محمد المنصور الشقحاء
١١ – المضيفات والممرضات في الشعر العربي المعاصر	عبد الرحمن المعمر
١٢ – ملف نادى الطائف الأدبي الأول	إعداد النادى
١٣ – أجنحة بلا ريش	حسين سرحان
١٤ – نظرات في الأدب والتاريخ والأنساب	على حسن العبادى
١٥ – رجل على الرصيف	عبد الله سعيد جمعان
١٦ – صور من الحياة والمجتمع	على خضران القرني
١٧ – ذكــريات	أحمد على
١٨ – خواطر في التنمية (محاضرة)	د. غازي القصيبي
١٩ – حديث في الإعلام (محاضرة)	د. محمد عبده يماني

٢٠ ـ البيت أولا (محاضرة)	هشام ناظر
٢١ ـ جوانب صحية في التشريع الإسلامي (محاضرة)	حمد الدعيج
٢٢ ـ المحراب المهجور	إبراهيم الزيد
٢٣ ـ كتاب القصة (كتاب دورى)	محمد المنصور الشقحاء
٢٤ ـ مقالات في الأدب	إعداد النادى (كتاب دورى)
٢٥ ـ عذراء المنفى	إبراهيم الناصر
٢٦ ـ المختصر من كتاب نشر النور والزهر ج ١ ، ٢ (تحقيق)	محمد سعيد العامودى وأحمد على
٢٧ ـ ملف نادى الطائف الأدبي الثاني	إعداد النادى
٢٨ ـ معجم معالم الحجاز ج (١)	عاتق بن غيث البلادى
٢٩ ـ مذكرات الخط العربي	جلال أمين صالح
٣٠ ـ في الأدب والحرب	حسين سرحان
٣١ ـ أهـــازيج	محمد إبراهيم جدع
٣٢ ـ نافذة على الحائط المهدوم	هند صالح باغفار
٣٣ ـ حكاية حب ساذجة	محمد منصور الشقحاء
٣٤ ـ الرواد الثلاثة	عبد الله خياط
٣٥ ـ من حديث الكتب	محمد سعيد العامودى
٣٦ ـ دريد بن الصمة	مناحي ضاوي القثامي
٣٧ ـ كتاب القصة (٢)	محمد المنصور الشقحاء
٣٨ ـ مقالات في الأدب (٢)	إعداد النادي
٣٩ ـ ألوان من الأدب ج (١)	شعبان جبريل عبد العال
٤٠ ـ هتاف الحياة	عبد الله جبر
٤١ ـ كنز الإنسان ومعجم الآداب	حمد الحقيل
٤٢ ـ القصـــاص	عبد الله سعيد جمعان

٤٣	معجزات القرآن الكريم البيانية (محاضرة)	د. حسن محمد با جودة
٤٤	الصمت والجدران	سباعي أحمد عثمان
٤٥	حين ينزف الأفق	إصلاح سهيل
٤٦	الطائر الغريب	حسين سرحان
٤٧	ملف نادى الطائف الأدبي الثالث	إعداد النادى
٤٨	في علم العروض	د. عبد الهادى الفضلى
٤٩	أحيحة بن الجلاح	د. حسن محمد باجودة
٥٠	المسحوق	محمد حمد الصويع
٥١	سوق الخميس	خليل ابراهيم الفزيع
٥٢	دعونا نعش	احمد سباعى
٥٣	الموسوعة الأدبية	عبد السلام الساسى
٥٤	كتاب القصة (٣)	محمد المنصور الشقحاء
٥٥	أغنيه الشمس	ابراهيم محمد الزيد


شركة مكة للطباعة والنشر
MECCA PRINTING & PUBLISHING CO.